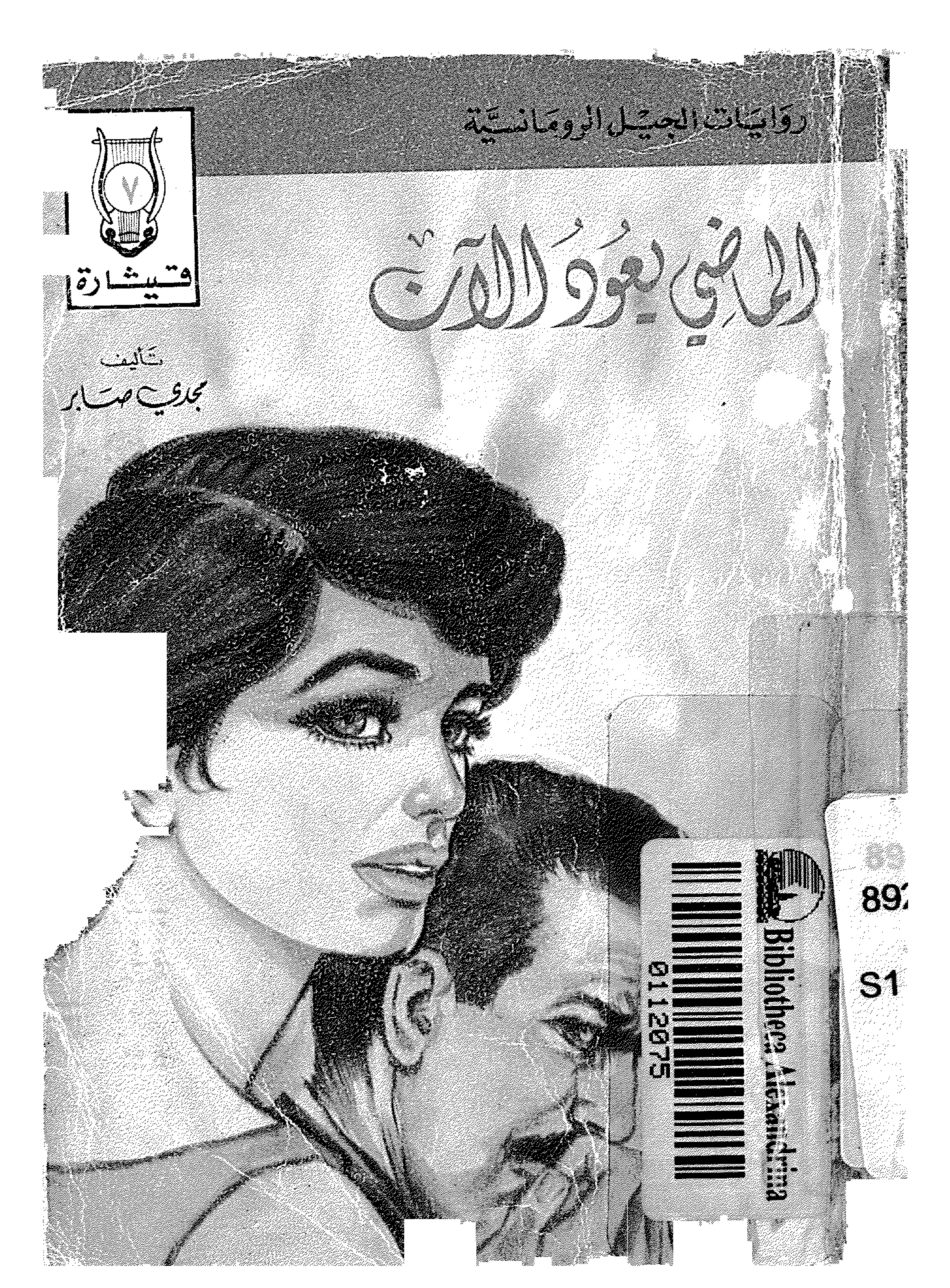
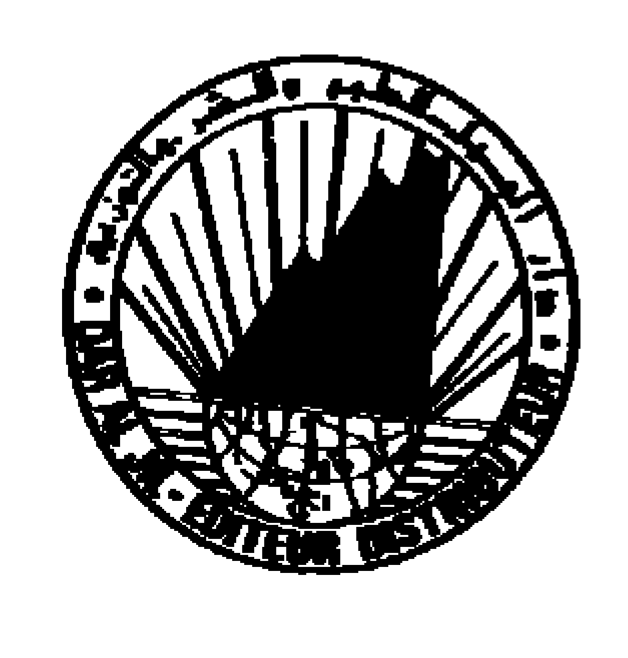

روايات الجيل الرومانسية
٧
قيثارة
الماضي يعود الآن
تأليف
مجدي صابر
Bibliotheca Alexandrina
0112075

الماضي يعودُ الآنَ

الطبعة الأولى
١٩٩٢



دار الجيل
للطبع والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

ص.ب ٨٧٣٧ - برقياً : دار جيلاب - تلكس : ٤٢٦٤١ دار جيل



روايات الجيل الرومانسية



الماضي يعود الآن

تأليف
مجدي صابر

دار الجيل
بيروت

« اللص .. والمحامي »

ــ محكمة.

صاح الحاجب بالكلمة بلهجة تحمل أكبر قدر من الوقار .. ونهض الجالسون احتراماً، لحظة دخول القاضي إلى مكان القاعة .. ثم استقر الجميع فوق مقاعدهم.

بدأ الحاجب النداء على أصحاب القضايا .. وتحرك المحامون من مقاعدهم في الصفوف الأمامية عند النداء على أسماء موكليهم للدفاع عنهم.

ظلت عينا غادة مصوبتين إلى محمود في مكانه الذي لم يغادره بالصف الأول، وقد ارتدى روب المحاماة وهو يطالع بعض أوراق القضايا معه .. وبدا غير منتبه إلى أي شيء آخر حوله.

كانت نظرات غادة تحمل مزيجاً من الحنان

والاعجاب .. وهي تنظر إلى محمود بلا ملل، فلا تلمح من مكانها غير جانب وجهه الأيسر، بفكه العريض وأنفه القوي وخصلات شعره القصير الأسود المصفف فوق جبهته الواسعة .. وقد ظهرت بضع شعرات بيضاء في فوديه .. بالرغم من أن عمره لم يتجاوز الثلاثين.

نادى الحاجب قائلا :

ــ المتهم سيد عبد الجابر حُسْني..

على الفور هب أحد الجالسين داخل القفص الحديدي بركن القاعة بملابس السجن الزرقاء .. وفي عينيه نظرة ذعر ورجاء ودموع. وتعلقت نظراته الزائغة بمحاميه ذي الشعيرات البيضاء القليلة في فوديه، الذي نهض في نفس اللحظة وتقدم نحو منصة القضاء.

وحانت من محمود التفاتة نحو موكله كأنما يطمئنه .. ثم صوَّب كلماته نحو القاضي مباشرة قائلاً : محمود عباس المحامي .. حاضر للدفاع عن المتهم.

دق قلب غادة بعنف .. فمن مكانها كانت ترى ملامح محمود بالكامل .. خاصة عينيه الرماديتين الواسعتين .. كأنهما سماء خريفية مليئة بالوحشة والغموض والمجهول.

وبدأ محمود مرافعته قائلاً : سيدي القاضي .. إن موكلي الماثل أمامكم في قفص الاتهام لا ينكر التهمة التي تدينونه بها .. لا ينكر أن يده قد امتدت إلى مال لا يخصه كان المفترض به أن يكون أميناً عليه بحكم عمله كصراف .. ولكنه بدلاً من ذلك امتدت يده إلى بعض هذا المال واختص به نفسه دون وجه حق .. وهو ما يطلق عليه القانون حالة السرقة والاختلاس .. وهو ما يعاقب عليه نفس القانون بالسجن ..

ـــ سيدي القاضي .. إن موكلي لا ينكر الاتهام ولا الدفاع ينكره أيضا .. ولكن هناك وجه آخر للقضية لم يتنبه أحد إليه .. ولا وضعه القانون في الاعتبار.

وصمت محمود فتعلقت أبصار الجالسين به .. وكتمت غادة أنفاسها كأنما تخشى أن تفوتها كلمة أو لفتة من محمود. وتألقت عينا المحامي بذلك البريق المجهول الغامض .. بريق السحب الخريفية الحزينة.

وأشار نحو موكله قائلاً بصوت عالٍ: إن هذا المتهم الذي قيدتم حريته ببذلة السجن الزرقاء الحديدية قبل الحكم عليه .. هذا الرجل ظل يعمل في نفس المهنة عشرين

عاماً، كان فيها مثالاً للأمانة والشرف والنزاهة .. لم يتلوث سجله كصراف طوال هذه الأعوام بأي سوء .. رجل يشهد له الجميع بالاخلاص والأمانة والتدين.

وصمت لحظة .. ثم أضاف في صوت حزين متألم: هذا المتهم له من الأولاد ستة .. غير أمهم وأمه .. كانوا جميعا يعيشون من راتب هذا الرجل الذي لا يتعدي المائة والعشرين جنيهاً. وقد استطاع أن يدبر حياة تسعة أفراد بهذا المبلغ الضئيل، دون أن يفكر لحظة واحدة في السرقة .. يعيش علي الكفاف ولكنه لا يمد يده لمال ليس له .. وفجأة تحول هذا الرجل الأمين إلى لص .. بعد ان إختلس من خزينته مبلغاً بسيطاً .. خمسمائة وثلاثين جنيهاً .. فقط خمسمائة وثلاثين جنيهاً من أصل مائتي ألف جنيه كانوا بالخزينة وكان يمكنه سرقتها كلها لو أنه كان يرغب في السرقة .. فلماذا تحوّل هذا الرجل الشريف إلي سارق بهذا المبلغ الضئيل .. ولماذا امتدت يداه إلي خمسمائة وثلاثين جنيها بالذات .. وليس ألفاً أو ألفين أو عشرة آلاف ؟

وصمت محمود لحظة وقد ضاقت عيناه وهو يصوب

نظراته نحو القاضي، كأنه يخاطب ضميره. وساد القاعة سكون عجيب. وقد امتلأت عينا المتهم بدموع غزيرة لا تتوقف .. وأحست غادة أنها تريد أن تبكي أيضا ولكنها تمالكت دموعها بقوة.

وأكمل محمود في صوت حزين قائلاً : لقد سرق المتهم هذا المبلغ القليل ليس لأجل أن ينفقه في شراء شيء ما .. ولا لأجل طعام أو شراب .. بل لأجل دفع نفقات علاج ابنته الصغيرة التي تعاني من أمراض عديدة بسبب سوء التغذية والربو. وعندما أدخلها مستشفى عام كادت تموت بسبب الإهمال وقلة الدواء .. فدفعته أبوته وحبه لها إلى أن يحملها لمستشفى خاص .. واضطرت يده أن تمتد إلى مال ليس له لينفق على علاجها ومصاريف المستشفى، عندما لم يجد إنساناً يمكن أن يقرضه ذلك المبلغ أو يهبه له على سبيل فعل الخير .. لقد سرق ليعالج ابنته الصغيرة المريضة .. اختلس من أجل كيان نبيل عزيز عليه .. من أجل ابنة شاء القدر أن يدهمها بأمراض عديدة لا ذنب لها فيها .. وعندما سُدت كل طرق الخير في وجه هذا الأب .. اضطر لأن يمد يده إلى مال ليس له لأنه

أراد إنقاذ ابنته من الموت، ولو كان الثمن حياته وشرفه ..
فمن منكم يمكنه أن يدين هذا الرجل على ما فعله ؟.
من منكم كان يمكن ألا يفعل نفس ما فعله هذا الأب ..
لو أنه كان في نفس موقفه ؟

جلجل صوت محمود في القاعة الساكنة سكون الموتى .. حتى كاد الحاضرون يسمعون أصوات تنفسهم .. وفجأة تعالى نحيب وبكاء .. واستدارت العيون الحزينة نحو غادة التي انفجرت بالبكاء .. فلم يحتمل قلبها أكثر مما سمعت .. وشهقت في مرارة .. ثم اندفعت تغادر القاعة ودموعها تسبقها والعيون تحاصرها في دهشة وتساؤل، مَنْ تكون وما علاقتها بذلك المتهم الواقف خلف القضبان الحديدية ؟

واستدار محمود نحو منصة القضاء .. استدار وفي عينيه أحزان موجعة وذكرى بعيدة أليمة التمعت في عينيه الرماديتين الحزينتين .. وبصوت متهدج نطق قائلاً : في القانون نصوص صريحة تعاقب بالسجن .. ولكن الضمير الإنساني يناشدكم ألا تعاقبوا أباً امتدت يده للسرقة لأجل إنقاذ حياة أحد أبنائه .. والعدالة أيضا تناشدكم ألا تقتصوا من إنسان

بنصوص عمياء لا تبصر غير وجه الاتهام .. فلن يدفع الثمن هذا الأب فقط إذا ما حكمتم بسجنه .. بل سيدفعه أيضا ستة أبناء في عمر الزهور .. لن يكونوا بلا راع بعد الآن .. وستلتقطهم الطرقات وأيدي الاجرام والانحراف إذا ما انفرط عقد أسرتهم بسجن الأب والحمي، ولن تكونوا قد عاقبتم الأب فقط على ما فعله، بل عاقبتم ستة من الأبناء بلا ذنب أيضاً .. فتتحقق عدالة القوانين .. دون أن تتحقق عدالة السماء أبداً.

واستدار محمود عائداً إلى مكانه .. وعاد السكون يشمل القاعة بأكملها واختفى الضجيج وماتت الهمسات .. ونطق البعض ممن لا علاقة لهم بالأمر في تأثرٍ هاتفين :

— يا رب.

وارتعشت شفتا المتهم خلف القضبان متضرعاً : يا رب .. أنت العليم بالضمائر والقلوب.

ونطق القاضي بعد لحظة تمهل : حكمت المحكمة بسجن المتهم سيد عبد الجابر حُسْني سنة مع إيقاف التنفيذ .. وبأن يتم تقسيط المبلغ الذي أخذه بغير وجه حق من راتبه.

ضجت المحكمة بهتافات الفرحة .. وبكى الكثيرون من السعادة رغم عدم معرفتهم للمتهم . وارتسمت ابتسامة مبللة برائحة الدموع على وجه محمود. ورفع عينيه إلى موكله في قفصه فرآه يشهق ببكاء هيستيري غير مصدق وأطفاله يحتضنونه من خارج القفص باكين .. فقد كانت تلك هي أقل عقوبة يمكن الحكم بها حيث يستحيل الحكم بالبراءة.

غمغم محمود في ارتياح بالغ : الحمد لله.

وغادر القاعة .. وتنفس بعمق وهو يتجه إلى حجرة استراحة المحامين .. ثم توقف مندهشا عندما شاهد غادة وقد هبت واقفة عند دخوله ..

رأى في عينيها دموع سعادة وفرحة متألقة. اتجهت غادة مباشرة وقالت في سعادة طفولية : ألف مبروك البراءة.

قال باسماً : المفروض أن أبارك أنا لك.

ــ لي أنا ؟ بدهشة تساءلت.

ــ طبعاً .. ألست قريبة للمتهم ؟

بدهشة أكبر قالت غادة : أنا .. لا .. أنا حتى لا أعرفه .. هذه هي المرة الأولى التي أراه فيها.

تساءل محمود في تعجب :

ـــ ولكن .. لماذا إذن كان بكاؤك في قاعة المحكمة ؟

ـــ ومن كان يمكنه أن يسمع مرافعتك .. ولا تتحرك دموعه ؟

وعادت عيناها الخضراوان تمتلآن بقطرات دموع كالماسات .. انعكست فوقها أضواء المكان .. فبدت العينان متألقتين واسعتين بين دموعهما .. كأنهما نجمتان تسبحان في بحر عميق لا قرار له.

رمقها محمود بدهشة وحيرة .. وقالت غادة تقطع حيرته : إنني طالبة بالسنة النهائية في كلية الحقوق، وقد رأيت أن أحضر إلى المحكمة لأشاهد بعض القضايا وأساليب المحامين في المرافعة خاصة قضاياك أنت، فقد سمعت عنك الكثير.

وارتعشت شفتاها الممتلئتان الحمراوان كالفراولة الناضجة واصطبغتا بلونٍ قانٍ .. ونكست وجهها فتناثر شعرها النُحاسي القصير فوق جبهتها ووجنتيها الممتلئتين الموردتين كتفاحة تامة النضوج.

رمقها محمود في صمت وهو يتأمل ملامحها الفاتنة

ثم قال بعد لحظة : إن أغلب القضايا التي أترافع فيها قضايا عادية .. هناك قضايا كبيرة يتعامل معها أساتذة كبار ومرافعاتهم فيها عظيمة وهم أحق بمتابعتك لقضاياهم.

رفعت غادة وجهها ونطقت مقاطعة في إصرار : لم آتِ إلا لرؤيتك وحدَك وأنت تترافع في قضاياك، وليست هذه هي المرة الأولى التي أراك فيها وأنت تترافع في إحدى القضايا.

ــ ولماذا أنا بالذات ؟ تساءل محمود في حيرة.

في بساطة أجابته غادة : إن لك أسلوباً غير عادي في المرافعة .. كأن صاحب كل قضية أو متهم هو أبوك أو أخوك أو جزء غالي عزيز على نفسك.

شحب وجه محمود بشدة .. لم ينطق على الفور ثم قال بعد لحظة: من واجب كل محامٍ أن يتعامل مع قضاياه بضمير حي .. كأنها قضاياه هو .. فحياة المِوكل وحريته أمانة في يد محاميه.

ثم ابتسم ابتسامة صغيرة وهو يضيف : لو كنت مكانك لعدت إلى منزلي وشغلت وقتي في المذاكرة .. فالامتحانات بعد شهر واحد فقط.

ـــ سأعود .. ولكن ..

وصمتت وهي تنظر إليه وعيناها ناطقتان بما تريد قوله .. سألها : ولكن ماذا ؟

أجابت ببطء وارتباك : إذا نجحت .. هل تعدني أن تلحقني بالعمل كمحامية تحت التمرين في مكتبك ؟

لمعت ابتسامة على وجهه القوي .. وتألق اللون الرمادي في عينيه .. ثم قال : إنني لست أستاذاً أو حجة في القانون .. ومكتبي صغير وقضاياه عادية ولن تتعلمي منه الكثير و ..

ـــ هل تعدني ؟

كررتها في لهجة أقرب إلى الرجاء.

رمقها لحظة .. أدهشه عمق عينيها الخضراوين وإصرارهما .. ووجنتاها اللتين توردتا بألوان الخجل ..

قال في تسليم : أعدك .. ولكن بشرط واحد.

ـــ ما هو ؟ تساءلت بلهفة.

ـــ ألّا يقلّ تقديرك عن « جيد » في الامتحان.

بسرعة أجابت : لن يقل عن ذلك .. هذا وعد !

وتألقت عيناها ببريق فرحة طاغية آسرة .. مليئة بكل آمال السعادة.

ثم أسرعت تغادر المكان، وقلبها يدق بفرحة طاغية.

« الوعد »

مئات من الطلبة يتدافعون أمام النتائج المعلقة في الكشوف بحائط سور الجامعة .. وأصوات اللهاث وهمسات الدعاء والابتهال تحلّق فوق الرؤوس.

كان البعض، ما إن يلقى بنظرة واحدة إلى الكشوف، حتى يُطلق صيحة فرحة .. والبعض الآخر ينطلق باكيا في ندم ومرارة على ما ضاع.

اقتربت غادة وقلبها يدق مثل قرع الطبول .. دفعتها الأيدي المتزاحمة بعيداً .. ولكنها جاهدت تشق الزحام حتى توقفت أمام كشف النتيجة الذي يحمل اسمها.

كادت تفقد وعيها من الخوف وعيناها تتابعان كشوف الأسماء .. أخيرا استقرت عيناها فوق اسمها .. « غادة منصور الدرمللي » .. التقدير العام « جيد ».

صرخت من السعادة .. ونبض قلبها بالفرحة .. عادت
تشق الزحام خارجة منه وقد أمدتها الفرحة بقوة لا تقاوم
وهي تشعر أنها تكاد تطير فوق الأرض من السعادة. وجاء
صوت من الخلف يسألها : غادة .. ماذا كانت نتيجتك
ولكنها لم تتوقف للإجابة وهرولت تغادر الجامعة .
وأشارت إلى أول تاكسي حملها إلى حي « جاردن سيتي »
العريق .. قفزت من التاكسي مسرعة نحو المنزل الصغير
الذي يحمل بصمات الزمن فوق جدرانه والمكوَّن من طابقين
كالفيلا .. وتحيطه حديقة صغيرة فيها بضع أشجار متناثرة
بلا ثمار، بعد أن هرمت وشاخت وصارت مثل عجوز
لا نفع منه.

قفزت غادة سلالم المنزل إلى الداخل صائحة : أنا
نجحت .. نجحت.

اندفعت إليها أمها .. احتضنتها في سعادة وهي تمطرها
بالقبلات هاتفة : ألف مبروك يا حبيبتي.

وأقبل أشرف أخوها الصغير قائلا في لهجة معاكسة :
من يرك بهذه الفرحة يظن أنك نجحت في كلية الطب.

قالت له غادة في تحفظ : ليس هناك فارق بين المحامي

والطبيب، فكلاهما يعالجْ نوعاً معيناً من الأمراض.

وبلهجة ساخرة أضافت : فلنَرَ ما ستفعله أنت في الثانوية العامة العام القادم.

قال مفاخرا : لن يقلّ مجموعي عن ٩٠٪، وأدخل كلية الطب بإذن الله.

— بل ستدخل كلية الشرطة !

جاء الصوت من أعلى السلم الداخلي قويا حازماً آمراً .. بلهجة من اعتاد أن يعطي الأوامر التي لا ترد.

ومن الخلف ظهر الأب وهو يهبط السلالم في بطء .. بوجه يحمل ملامح تقترب من الستين، ولكن البدن كان لا يزال يمشي بقوة واستقامة .. والعينان تومضان بسيطرة بالغة.

اندفعت غادة نحو أبيها معانقة : نجحت يا أبي .. وحصلت على تقدير « جيد ».

ربت الأب على رأس ابنته في ود وحنان وقد أشرق وجهه بالسعادة قائلاً : مبروك يا ابنتي.

وعاد الصوت المسيطر يقول : ستدخلين « أكاديمية الشرطة » لتصبحي ضابطة شرطة.

وساد صمت عميق بعد كلمات الأب .. وحانت منه التفاتة إلى الصورة الكبيرة التي تحتل صدارة حجرة الزوار وتطل من بابها المفتوح، وتمثله في زي رجال الشرطة برتبة عميد .. قبل إحالته للمعاش منذ عدة سنوات.

دق قلب غادة بعنف .. وشحب وجهها وهي تقول : ولكن يا أبي أفضل المحاماة .. إن عمل المرأة في الشرطة لا يجذبني على الإطلاق .. فهو عمل خشن ولا يناسبني.

قهقه الأب قائلاً : هذا ما كنت أريد أن أسمعه منك .. لقد كنت ضد نظام عمل المرأة بالشرطة، فالشرطة للرجال فقط !

وأشار نحو أشرف مؤكداً : سوف تكون الفرع الذي يواصل مسيرة الأصل .. ستحصل على ٩٠٪ العام القادم في الثانوية العامة .. ثم تدخل كلية الشرطة فتكون خير خلف لوالدك.

غاصت دماء أشرف في وجهه .. ولم ينطق .. ونظر إلى أمه بصمت وشحوب كأنه يستغيث بها، ثم اتجه صاعداً إلى حجرته وهو يفور بالرفض والغضب. كان يكره أسلوب والده في معاملته بطريقة بوليسية قوامها إلقاء الأوامر ..

لا يحاول أن يناقشه .. وأن يسأله عما به .. أن يخفف عنه ويلاطفه .. أن يُشعره أنه أب قبل أن يكون ضابط شرطة .. أن يهوّن عليه احتياجاته لمطالب كثيرة يراها في أيدي زملائه .. ولا يستطيع معاش والده أن يحققها له.

راقبت غادة أخاها وهو يتجه إلى حجرته .. كانت تدرك بعض مشاعره وتحاول التخفيف عنه .. ولكن أشرف كان دائم التمرد والاعتراض.

وتذكرت نجاحها .. فقالت وقد عاد إليها تألقها : الآن يجب أن أذهب فوراً إلى الأستاذ « محمود عباس ».

تساءل الأب : ومَنْ محمود .. هذا ؟

غادة : إنه المحامي الكبير الذي سأعمل تحت التمرين عنده .. إنها فرصة يتمناها أي محامي شاب قبل أن يفتح مكتبه الخاص، فرصة العمل لدى أستاذ كبير مثل الأستاذ « محمود عباس ».

ولوحت بيدها لوالديها وهي تغادر المنزل في سعادة مثل فراشة تحلّق بين المروج والأزهار.

وقال الأب في حماس مؤكداً : سوف يكون لغادة مكتبها الخاص في أفضل أحياء القاهرة .. شقة لا تقل

عن أربع حجرات وخمسة محاميين تحت التمرين على الأقل لمساعدتها.

رمقته الزوجة بصمت وحزن .. ووقعت عيناها على الأثاث القديم الذي لم يتغير منذ زواجهما، وطلاء المنزل الكالح الذي لم يتغير منذ سنوات طويلة بعيدة .. ولاحظ الأب نظرتها فضاقت عيناه في بعض الألم والإحساس بالعجز .. وتذكر معاشه الذي لا يزيد عن ثلاثمائة جنيه وقال في صوت حزين: ليس هناك داع لشقة خاصة .. يمكنها أن تأخذ إحدى حجرات المنزل هنا وتفتحها مكتباً خاصاً لها .. وبعد أن تشتهر وتزداد أتعابها سيكون لها مكتب فاخر في أي مكان تختاره.

واستدار يصعد السلم وهو يعرج عرجاً خفيفا ينبئ بإصابة قديمة تركت آثارها في القدم اليسرى برغم السنوات الطويلة .. وكانت سبباً في عدم ترشيحه لمنصب قيادي في وزارة الداخلية .. وهدم مستقبل عظيم كان ينتظره.

* * *

— مبروك. قالها محمود في بعض الارتباك .. كان قد نسي أمر غادة تماماً .. وها هو يتذكرها فجأة عندما

اقتحمت مكتبه ذلك المساء وابتسامة سعادة تحتل مساحة وجهها بالكامل.

ــ مبروك فقط ؟ تساءلت غادة بشقاوة الأطفال.

ــ ليس مبروك فقط .. بل ألف مبروك. وابتسم في ود وصفاء.

قالت غادة بسعادة : كان تقديري « جيد ».

تساءل : ولماذا ليس « جيد جداً » ؟

أجابته وهي تملأ عينيها بملامحه : لو كان هذا شرطك لعملي معك كمحامية تحت التمرين، لحصلت على « جيد جداً » أو حتى « امتياز ».

تذكر وعده لها .. أصابه شيء من الاحراج ولم يجد ما يرد به .. وجلست غادة أمامه وهي تقول في بساطة : جئت إليك لتنفيذ وعدك .. متى سأتسلم عملي ؟

لم ينطق على الفور .. وأكملت غادة متسائلة : لاحظت أنه ليس لديك سكرتيرة لك تقابل العملاء وتنظم مواعيدك تجهز أوراق القضايا والملفات .. هل هي في إجازة ؟

أجابها محمود في جمود :

ــ ليست هناك أي سكرتيرة في المكتب.

– حسناً .. سأكون سكرتيرتك أيضاً .. فالعملاء دائماً ينظرون إلى مكاتب المحامين التي بها سكرتيرات على أنها مكاتب محترمة ويدفعون لأصحابها أتعاباً مضاعفة.

قالتها بنفس لهجتها السابقة الودودة .. وأكملت باسمة : لا تقلق فلن أتقاضى أي أجر مقابل ذلك .. أنا أعرف أن كل المحامين الكبار لا يمنحون أجراً للمحامين تحت التمرين الذين يعملون معهم .. فقط سأطالب أن يكون حساب الشاي والقهوة في المكتب على حساب المكتب.

وانطلقت تضحك كطفلة صغيرة شقية .. وراقبها محمود في صمت .. كان ضد مبدأ أن تعمل معه محامية كشريكة أو تحت التمرين .. ولا حتى كسكرتيرة .. وأوشك أن يتصل لغادة من وعده لها .. ولكنَّ شيئاً ما جعل الكلمات تذوب فوق شفتيه وتُمْحَى حروفها، فلا يقدر على قتل فرحة تلك الحسناء الشقية المتوثبة كعصفور الجنة.

وتساءلت غادة في دهشة : هل ستظل تنظر إليّ طويلاً .. إن هناك عملاء ينتظرون الدخول إليك في الصالة ولا يصح أن تتركهم طويلاً .. ما رأيك أن أبدأ عملي كسكرتيرة منذ الآن ؟

ولم يشعر إلا وهو يهز رأسه بالموافقة رغماً عنه .. وقد اكتسي وجهه بابتسامة فرح لم يَرَها من قبل أبداً.

فجأة توقفت غادة عن الضحك وعقدت حاجبيها وهي تنظر إلى شهادة تخرج محمود في كلية الحقوق والمعلقة خلف إطار من الزجاج فوق مقعده .. وتساءلت في دهشة : هل كنت الأول على دفعتك وحصلت على « امتياز » مع « مرتبة الشرف » ؟

هز رأسه في صمت ودون إحساس بالفخر.

فاجأه السؤال إلى درجة الشلل .. وكان عليه توقعه .. أحس أنه يوشك على الترنح والسقوط بسبب الذكرى المباغتة. ولكنه تمالك نفسه بقوة جبارة، وقال بصوت كأنه خارج من قبر : لقد اخترت المحاماة عن حب ولهذا رفضت العمل في الجامعة أو النيابة.

رمقته غادة بنظرة دهشة .. ثم عادت ابتسامتها تطل من شفتيها وهي تقول : أنا أيضا اخترت كلية الحقوق عن حب.

وغادرت المكان فتهاوى محمود فوق مقعده وعيناه الرماديتان تظللهما سحابة من الأحزان والآلام.

وضغط على زر صغير بجانبه، فأقبل عم إبراهيم الساعي ووقف ينتظر أوامره. قال محمود وهو يعاني من صداع قاتل : أريد فنجان قهوة مضبوط.

أجاب عم ابراهيم في حماس :

ـــ حالاً.

واتجه الساعي العجوز نحو الباب، ثم توقف لحظة وأطلت من وجهه المغضن نظرة سرور وهو يقول : إن هذه المحامية الشابة التي حضرت اليوم للعمل معك فتاة رائعة .. إنها ودودة ونشيطة جداً ولا تكف عن الضحك والابتسام لكل العملاء .. وأعتقد أن أعمال المكتب ستتضاعف بوجودها .. لقد كنا بحاجة إلى فتاة مثلها لتتولى بعض أعباء المكتب، فالعملاء لا يحبون أن يستقبلهم عجوز كثير النسيان مثلي.

وغادر الساعي المكان وهو يضحك كأنه قال نكتة .. وقد غرق محمود في تفكير عميق وآلاف الأفكار تدق في رأسه كالمعاول.

« الحب .. هو القدر »

لم يغمض لغادة جفن تلك الليلة.

ظلت حتى الصباح مسهدة وهي تتذكر تفاصيل يومها لطويل الحافل .. وعينا محمود الرماديتان لا تفارقان عينيها وكلمات عم إبراهيم الساعي لا تزال ترن في أذنيها : إنه أعجب محامي رأيته في حياتي .. يرفض قضايا كثيرة كبيرة لأنه لا يرتاح لأصحابها ويقول أنهم جاءوا إليه من أجل براءة لا يستحقونها .. ويوافق على قبول قضايا صغيرة أصحابها أناس بسطاء ولكنهم مظلومون .. لا يملكون حتى ما يدفعونه كأتعاب له .. ولكنه يتبنى قضاياهم ويدافع عنهم .. كأنما هم أهله وناسه .. وإن خسر إحدى هذه القضايا أصابته الكآبة لفترة طويلة .. كأنما من سُجن ظلماً هو أخوه أو أبوه.

وراحت تتذكر ..

فمنذ اللحظة الأولى التي رأته فيها بالمحكمة أسرتها عيناه .. أحست أن حياتها قد ارتبطت بهاتين العينين بخيوط جاذبية سحرية لا تقاوم .. تلك العينين الرماديتين السابحتين في بحر من الغموض والأحزان. هل كانتا هما السبب في خفقان قلبها باسمة واندفاع قارب حياتها في بحر حبها له ؟ هل كانت تكفي نظرة واحدة إلى عينيه لأن تقع أسيرة حبه دون إرادة أو مقاومة ؟

هل يمكن أن يكون هناك حب منذ النظرة الأولى ؟ وهي التي اعتادت أن تسخر من ذلك دائماً وأن تفخر بأنها إنسانة عملية لا تعترف بمثل تلك الأشياء الرومانسية ؟

ولكن بماذا يمكنها أن تسمي تعلقها بمحمود منذ اللحظة الأولى .. ولماذا كان ذهابها المستمر إلى المحكمة لتراه وهو يترافع في قضاياه .. وتملأ عينيها منه .. وصوته القوي يتخلل مسام جسدها ويستقر في أعماقها ويسكن قلبها إلى الأبد ؟

إنها تدرك أنه لولا محمود ووعده لها .. ما حصلت على تقدير « جيد » في امتحان الليسانس .. ولكان تقديرها

« مقبول » ككل عام .. ولكنها ضاعفت جهدها ومذاكرتها حتى يمكن أن تعمل في مكتبه .. وتكون بقربه دائما .. وتنعم بذلك البريق الغامض الساحر في عينيه.

وتساءلت وقلبها يخفق بعنف عن السبب الذي يدفعها إلى الرغبة في الاقتراب منه إلى هذا الحد ..

ولم يكن من شك في إجابة وحيدة ..

إنها تحبه ..

منذ اللحظة الأولى التي انعكس فيها كيانه داخل بؤرة عينيها .. وقد استقر ذلك الكيان في قلبها إلى الأبد. وهي لا تدري لماذا أحبته .. لماذا هو بالذات دوناً عن الآخرين .. سؤال بلا إجابة .. فمتى كانت لأسئلة الحب إجابة ؟

إنها تحبه وهذا لا شك فيه .. تحبه بعنف ولا تطيق الابتعاد عنه .. ولأجل ذلك كان قبولها العمل لديه كسكرتيرة ومحامية تحت التمرين بلا أجر .. فنحن لا نطالب من نحبهم بأجر عن هذا الحب .. فمتى كانت لمشاعرنا أجر وثمن، لم تعد حباً خالصاً، بل صارت شيئاً آخر.

ولكن تكفي السعادة في الوجود بالقرب من هذا الحبيب .. فهي أعظم من مال الدنيا كلها.

كانت تشعر بقلبها يمتلئ بالبهجة .. لأول مرة تشعر بذلك الإحساس الطاغي، بأن شيئا ما يتملكها ويسيطر على مشاعرها دون أن تحاول مقاومته.

لأول مرة تشعر بسيطرة رجل ما على مشاعرها. لأول مرة تشعر بذلك النبض المتدفق بعنف في قلبها .. كلما صادفت عيناها عيني محمود .. وبرغم أنها حتى تلك اللحظة لم تكن تعرف عنه أكثر مما أخبرها به عم إبراهيم الساعي .. بأنه يتيم الأبوين وأنه يتخذ من إحدى غرف مكتبه حجرة لنومه. فلا مكان آخر يعيش فيه، وليس له أي أقارب ولا أصدقاء حتى في مجال عمله.

وتساءلت في حيرة واضطراب .. ترى ما هو مصير حبها لمحمود .. هل سينتهي نهاية طبيعية بالزواج .. أم أنه لن يشعر بها أبداً .. وستظل بالنسبة له مجرد سكرتيرة ومحامية تحت التمرين ؟

هل حقا يمكنه ألا يشعر بأحاسيسها تجاهه ؟

هل يمكن أن يغفل عن كلمات الحب المطبوعة في

نظرات عينيها .. ولا يشمَ رائحته في صوتها ؟
وأخافها ذلك الخاطر إلى درجة البكاء .. فنامت وقد بللت وسادتها بدموعها.

* * *

تساءلت غادة في دهشة ويد محمود ممدودة إليها ببعض المال : ما هذا ؟

ــ إنه أجرك عن عملك معي الشهر الماضي .. مائة وخمسون جنيهاً !! نصفها لعملك كسكرتيرة والنصف الآخر كمحامية تحت التمرين.

تطلعت إليه بوجه شاحب قائلة وصوتها يرتعد : ولكننا اتفقنا على أن أعمل بلا أجر.

قال بتصميم : ولكني لا أقبل أن تعملي معي بلا أجر .. من حقك أن يكون لك أجر وإلا كنت ظالماً معك .. فلا أحد يعمل بلا مقابل.

اعترضت بصوت متألم : ولكن...

قال بحسم : إما أن تأخذي هذا المبلغ أو ..

ولم يكمل .. ولكن ما كان يريد قوله ارتسم على ملامحه في تصميم لا يلين.

امتدت يد غادة رغما عنها نحو المبلغ .. ارتعشت أصابعها وهي تتناوله .. وكادت تنفجر بالبكاء .. كأنما تلك النقود نار ستحرقها بلهيبها وستحول حياتها إلي جحيم. لم تكره المال قدر كراهيتها له تلك اللحظة ..

كانت دائما بحاجة إلي أشياء كثيرة تمنتها في حياتها ولم تحصل عليها بسبب قلة المال .. كان والدها ضابطاً كبيراً يحسدها عليه مئات من زملائها بسبب رتبته العالية .. ولكنه كان رجلاً شريفاً لم يتلوث ولا بكلمة سوء .. ونشأت غادة في كنفه مع أسرة تتعايش بمرتب متواضع وهيئة اجتماعية براقة يحسدهم عليها الكثيرون، دون أن يدرك من حولهم حجم معاناتهم.

لم تشكُ غادة يوماً لأبيها بسبب احتياجاتها .. كانت ترى فيه مثالاً للشرف والنزاهة .. وكان يكفيها فخرا أنه أبوها .. مهما تزايدت احتياجاتها المالية ..

والآن صارت بحاجة ماسة إلى المال .. وها هي قد تخرجت ومن حقها أن تعمل وأن تحصل علي أجر مقابل هذا العمل لترد ديناً لأسرتها .. ولوالدها .. خاصة بعد تناقص مرتب والدها إلى النصف بخروجه إلي المعاش.

كان أملها أن تعمل بمرتب كبير .. يوفر لها كل احتياجاتها وأمانيها .. ويتيح لها شراء ما تمنته .. وأن تسدد جزءاً من جميل أسرتها عليها.

المال هو العالم السحري الذي رأته يبدّل حال كثيرات من صديقاتها .. ولطالما تمنت أن تكون لها مثل ملابسهن الغالية وعطورهن الساحرة .. وسياراتهن الفاخرة وحليهن الثمينة.

وها هي أول قطرة من نهر الغيث الذي تمنته .. أول مرتب في حياتها ..

ولكن لماذا لا تشعر بالسعادة لهذا المال ؟

هل لأنه جاء من محمود بالذات ؟

وكانت هذه هي الحقيقة ..

لقد كانت تعمل معه لأن قلبها خفق بحبه .. وكانت تتمنى أن يلاحظ مشاعرها ويتنبه إلى حبها له .. لا أن يسعى إلى مكافأة مشاعرها بالمال.

ولكن ها هو يمنحها أجراً ليؤكد أنها بالنسبة له ليست إلا سكرتيرة .. ومحامية تحت التمرين !

وضعت غادة المال بحقيبتها وهي تجاهد لتكبت

دموعها .. وغادرت المكان بوجه منكس مهزوم دون أن تنطق بكلمة واحدة.

وبقي محمود في مكانه يراقبها وهي تغادر المكان .. كأنما كان يريد أن يتأكد ..

كانت خبرته بالنساء قليلة .. ولكنه لم يكن من الغباء بحيث لا يلاحظ مشاعر غادة نحوه وحبها له.

كانت معالم ذلك الحب واضحة لا تخفى .. في إصرارها على حضورها جلسات مرافعاته وقضاياه، حتى تلك التي لا يلزمها حضورها، واستيقاظها كل يوم مبكرة بسبب ذلك .. ثم السعادة الطاغية التي كان يراها في عينيها كلما حصل على حكم بالبراءة لأحد عملائه .. وتفانيها في أعمالها كسكرتيرة له وتنظيمها لعمله. وحتى الكتابة على الآلة الكاتبة تعلمتها لأجله وبرعت فيها، لتوفر ما كان يدفعه أجراً لكتابة قضاياه في أحد مكاتب الآلات الكاتبة.

لم يكن هناك شك في أن ابتسامتها الدائمة وعينيها المتألقتين .. وحرصها على أن تكون بقربه دائما .. كانت كلها علامات تؤكد حبها له. وأخيراً محاولتها رفض

حصولها على أجر مقابل عملها .. كأنها ترفض أن تأخذ ثمناً لمشاعرها وحبها له. لم يكن حبها له بحاجة إلى تأكيد !

واكتشف تلك اللحظة أنه أيضا لم يعد كما كان .. لم يعد ذلك الكيان الخالي من المشاعر.

كأن شيئا ما قد تغير بداخله .. ولطالما سأل نفسه الفترة الماضية، لماذا وافق على أن تعمل غادة معه في مكتبه .. لماذا لم يعترض ؟.

ولماذا صار يشعر في وجودها بقربه براحة كبيرة .. ولماذا صار يقلق إذا تأخرت دقائق عن موعدها في الحضور إلى المكتب .. بل لماذا صار يتفاءَل بأن يراها صباحاً قبل حضوره أي جلسة ؟

وأخفى محمود وجهه بيديه كأنه يحاول أن يهرب من رؤية الحقيقة .. لم يعتد في حياته أن يهرب من الحقائق .. وفي تلك اللحظة اكتشف الحقيقة التي حاول أن يثبت عكسها لنفسه .. لقد أحبها !

أحبها رغماً عنه .. برغم كل الموانع والحواجز التي كان قلبه قد أقامها من قبل حتى لا تقتحمه أي فتاة.

أحبها برغم أنه قد عاهد نفسه ألا يقع في الحب أبداً .. وألا يرتبط بإنسانة كحبيبة أو كزوجة .. أحبها برغم الماضي المسلط كالسيف على رقبته .. يخشى أن تأتي حادثة ما فتزيح عنه ستائر الآلام والأحزان .. فتنفجر الذكرى في حياته بمرارة متجددة وعاصفة ربما تدمر مستقبله كله.

أدرك أنه أحبها منذ اللحظة التي جاءته إلى مكتبه عارضة أن تعمل لديه كمحامية وكسكرتيرة أيضا وبلا أجر. وومضت شرارة الحب في قلبه فلم يستطع رفض طلبها.

بل ربما أحبها منذ شاهدها في حجرة استراحة المحامين بالمحكمة .. وهي تطلب منه وعداً بأن تعمل لديه عند تخرجها .. ولهذا وعدها بعد أن أسرته نظراتها .. وخضرة عينيها ونظرة الطفولة البريئة الساكنة فيهما.

أو لعله أحبها منذ أن شاهدها تبكي في قاعة المحكمة .. عندما رآها للمرة الأولى في حياته ..

إنه لا يدري متى أحبها .. أو لماذا .. فالحب دائماً لا يخضع لأي تفسير ولا يحكمه قانون. وما من عاشق يمكنه أن يقول لماذا أحب معشوقته .. هل لأنها جميلة .. هل لأنها رقيقة .. هل لأنها مهذبة .. ولكن ملايين الفتيات

والنساء جميلات ورقيقات ومهذبات .. فلماذا أحبها دون غيرها ؟

أدرك محمود أن هذا السؤال سيظل بلا إجابة ربما إلى الأبد .. وشعر كأن غادة هي قدره .. قدر الحب الذي لا يمكنه أن يهرب منه أبداً.

وقرر أن يستسلم لقدره .. فقد كان يؤمن دائماً بالقدر .. والحب هو القدر نفسه .. فالحياة بلا حب مثل سماء مظلمة بلا نجوم أو بارقة ضوء أو أمل.

ومرة أخرى دق قلبه بنبضات سعادة لم يشعر بها من قبل أبداً.

« لا وقت للدموع »

همس يسألها بعد أيام قليلة : هل تقبلين دعوتي إلى العشاء ؟

إتعست عينا غادة بدهشة لا حد لها .. ظنت أن سمعها قد خانها ومحمود لا يزال واقفا خلف مكتبه، وعيناه ناطقتان بالسؤال نفسه تنتظران إجابة.

كانت قد مرت أيام قليلة على ما حدث .. تحاشت فيها أن تتحدث إليه بقدر الإمكان .. وتحاشت فيها أن تنفق مليما واحداً مما أعطاها .. صارت أقل مرحا وحياة وبدت عيناها أقل اتساعا وأكثر حزنا.

أيام طويلة من الأحزان والآلام وهي لا ترى في نفسها بالنسبة له غير سكرتيرة ومحامية مبتدئة تحت التمرين ..

وها هو بسؤاله غير المتوقع يلقي بحجر في بحيرة مشاعرها الراكدة بالأحزان.

عاد يسألها في رجاء : هل تقبلين دعوتي إلى العشاء ؟

تمالكت نفسها وقالت وهي تهرب بعينيها : لست إلا سكرتيرتك ومساعدتك .. ليس من حقي قبول مثل هذه الدعوة.

ونكست رأسها فلم تلمح مشاعر الألم الناطقة في عينيه الرماديتين وهو يقول لها : لعلني لا أدعوك للعشاء بصفتك سكرتيرة .. ربما بصفة زميلة .. فنحن على الأقل زميلان في مهنة واحدة ولا أظن أنك سترفضين دعوة بريئة من زميل.

قالت في مرارة : إن كان بقائي في عملي يتوقف على قبولي هذه الدعوة فلا أستطيع رفضها .. فأنا في حاجة إلى هذا العمل.

وكادت عيناها تنطقان ببقية حديثها .. إنها في حاجة إليه .. لم تعد تستطيع أن تبتعد عنه أو ترفض له طلباً .. مهما سبَّب ذلك من جراح لها.

خرجا إلى مطعم قريب، لكنه ليس هادئاً .. جلس

العشرات حولهما يأكلون ويثرثرون ويضحكون كأنهم يمثلون الحياة التي تمضي دائماً، رغماً عن آلام الآخرين.

وجاء الطعام فراحت تأكل في صمت وبلا شهية .. لاحظ أنها تأكل إرضاءً له وحتى لا تفسد عليه طعامه .. وتحاشت أن تنظر في عينيه كأنها تريد أن تهرب من شيء ما. راقبها محمود بصمت. أحسَّ بمشاعره متدفقة تجاهها. أدركَ أنه يعذبها بصمته .. وسكونه .. بتجاهله لها برغم مشاعره المتأججة نحوها.

همس يقول باعتذار: إنني آسف إذا كنت قد أجبرتك على المجيء إلى هنا وتناول العشاء معي .. ولكنني عادة أتناول عشائي وحدي في حجرة نومي بمكتبي .. وأسعدني أن يشاركني انسان آخر عشائي لأول مرة .. ولم يكن من اللائق أن أدعوك لتناول العشاء معي في مكتبي.

رفعت غادة عينيها نحوه .. خُيّل إليها أن في صوته رنة حزن .. وظلت عيناها معلقتان بوجهه .. فقال محمود بنفس اللهجة : كان عليّ أن أدرك أنه لا يصح أن أدعوك للعشاء في أي مكان .. حتى لا أجرح مشاعرك أو أن

يتناولك إنسان بكلمة سوء .. فليس بيننا غير علاقة عمل قد يسيء البعض الظن بها.

طعنتها الكلمة .. وأحست بالغضب متدفقاً فقالت في تحدٍ : لم أفعل ما أخجل منه ولذلك فلا يهمني كلام الناس .. أنا أعرف ما الصواب وما الخطأ ولست بحاجة إلى إرشاد أو تقويم من الناس.

وساد صمت بعد حديثها الغاضب .. وتكشف لمحمود أنها برغم تلقائيتها وبساطتها، فإنها أيضاً ذات شخصية قوية واثقة.

سألها فجأة وأصابعه تعبث بشوكة أمامه : لماذا أردت العمل في مكتبي بالذات ؟ لم يفاجئها السؤال بل كانت تتوقعه منذ فترة، وربما ما أدهشها هو تأخر السؤال كل هذا الوقت .. وهربت بعينيها وهي تقول : هناك أشياء نفعلها دون أن ندرك تفسيراً لها من جانبنا .. أنت نفسك فعلت شيئا لا تفسير له عندي.

سألها بدهشة : وما هو ذلك الشيء ؟

أجابته في تحدٍ شأن من يوشك أن يخوض نضالاً : دعوتك لي للعشاء .. لا أجد لها تفسيرا.

ساد صمت قصير بعد كلماتها .. تواجها .. تقابلت عيونهما .. مرت لحظة قصيرة من الصمت ولكنها بدت طويلة .. طويلة ..

قال ببطء : ربما كان لديّ تفسير.

ـ هل من حقي أن أعرفه ؟

تساءلت بصوت لا ينم عن أي مشاعر .. فأدرك كم تستطيع التحكم في مشاعرها رغماً عنها .. ورغم النظرة الطفولية البريئة في عينيها الجميلتين.

كان قد اتخذ قراره في نفس اللحظة وبعد أيام طويلة من الصراع .. كانت هي قدره، وكان موقناً أن كل دقيقة تضيع منهما وتنفلت من حياتهما هي لحظة سعادة لا تعوّض. وأن ما يضيع من السعادة لا يعود أبداً. كان عليه أن يدخل إلى الهدف مباشرة .. هدف دعوتها إلى العشاء.

قال لها في صوت واثق : أنا أعرف لماذا أردت العمل في مكتبي .. ولماذا ساءك أنني منحتك أجراً مقابل هذا العمل.

ضاقت عيناها بشدة واستنكار، وهتفت متحدية : ماذا .. هل تقرأ الأفكار أيضا ؟

ثم تساءلت ساخرة : وما هو هذا السبب ؟!

ـــ لأنك تحبينني.

قالها في بساطة وابتسامة واسعة تملأ ملامحه.

وفوجئت غادة بما قاله محمود .. وشحب وجهها حتى صار بلون الموتى .. وكاد قلبها يتوقف عن الخفقان .. وداهمها إحساس رهيب بأنها تكاد تفقد وعيها أو تموت وتسقط من علوٍ شاهق لا قرار له.

اختطفت حقيبتها وهي تبذل قوة جبارة لتسيطر على إرادتها .. غمغمت بعينين مليئتين بدموع كاوية : أنت واهم ومغرور، ولولا إحترامي لك لوصفتك بما هو أسوأ.

وقبل أن تنفلت من أمامه هاربة أمسك بمعصمها .. وأحست بأصابعه قوية حول رسغها كأنها قيود حديدية لا تستطيع الهرب منها .. ولا كانت تتمنى الهرب منها، برغم كل آلامها !

واجهته بوجه طافح بالدموع .. كان لا يزال يبتسم كأنه لا يعبأ بمشاعرها وكأنه تحول إلى قلب صلد قاس، لا يحس بمشاعر الآخرين وقسوته عليهم .. وتمنت لو أنها تلاشت من العالم في تلك اللحظة حتى لا تدوم مشاعرها

بكرامتها المجروحة. وقالت في توسل باكٍ : أرجوك دعني .. سأخرج من حياتك إلى الأبد ولن تراني بعدهَا.

قال في حنان : سأتركك بشرط أن تعديني .. ألا تخرجي من حياتي أبداً.

رمقته بدهشة وعدم فهم ودموعها تصنع غمامة أمام عينيها .. وأكمل محمود في حنان أشد : كيف لم تفهمي ما أقصده .. أنا أيضاً أحبك.

حملقت فيه لحظة كأنها تخشى أن تصدق ما سمعته .. فكرَّر لها : أحبك .. أحبك .. أحبك.

خانتها قدماها .. سقطت فوق المقعد وقد صعدت الدماء إلى وجهها وقلبها يدق بعنف لا مثيل له .. وعيناها الخضراوان غير قادرتين على التصديق وقد بدتا مثل عيني طفل تفتحتا على عالم مسحور مليء بمباهج لا نهاية لها.

واصل محمود قائلاً في بساطة : هذا هو السبب الذي دفعني لأدعوك للعشاء من أجله .. لأعترف لك بحبي.

تساءلت ذاهلة : هل تريد أن تعبث بي وتسخر مني ؟

هتف بإخلاص : لا .. صدقيني .. أقسم لك أنني أحبك كما لم أحب من قبل .. كانت حياتي قبلك جدباء قاحلة

مثل صحراء ميتة لا أمل لها في أن تنبت أرضها غير الآلام والمعاناة والذكرى الحزينة .. وعندما ظهرت أنت في حياتي تفجّر في قلبي نهر من المشاعر أحيا هذه الصحراء وأنبت فيها وروداً وآمالاً .. كنت أظن أن حياتي ستمضي إلى أن أموت دون أن أسمح لمخلوقة أن تطرق باب قلبي .. ولكنك فتحت كل أبواب حياتي واستقريت في خلايا جسدي ودمائي .. هذا هو ما أردت أن تعرفيه .. ولهذا كانت دعوتي لك إلى العشاء لأعترف لك بهذه المشاعر.

ومد أصابعه يمسح دموعها التي كانت لا تزال تنسال من عينيها .. ومست أصابعه وجنتيها الملتهبتين .. فأحست بهما برداً وسلاماً على مشاعرها الملتهبة.

قالت في اضطراب : أتعني .. أنك ..

وصمتت فقال مهوناً عليها : كيف كنت تظنين أنني لم أنتبه إلى مشاعرك .. إنك إنسانة صافية كنبع ماء رقراق لا كدر فيه .. كل ما يدور في داخلك مرتسم في عينيك .. تصرفاتك كلها كانت تدل على مشاعرك نحوي .. منذ اللحظة الأولى أدركت حقيقة ما تحسين به نحوي .. وقد

حاولت المقاومة في البداية .. ربما لأنني نذرت أن تكون حياتي كلها بلا حب .. ولكن ..

وامتدت أصابعه تمسك بأصابعها .. لم يخش كل النظرات المحيطة بهما .. ورفع أصابعها إلى شفتيه وقبّلهما توكيداً لما كانت عيناه تنطقان به.

شملت غادة فرحة جنونية .. فرحة عاتية كالعاصفة .. لا تكاد تعبر عنها المشاعر .. وعيناها مثل ماستين تتألق فوقهما آلاف الأضواء دون أن يستقر احداها بهما لحظة واحدة .. وأشرق وجهها بلهب سماوي وهي تقول : أشعر كأنني في حلم .. لا أكاد أصدق ما أراه وأسمعه.

قال بابتسامة : سوف تصدقين عندما ترينني غداً في منزلكم .. وعندما أطلب يدك من والدك .. هل سيكون ذلك كافياً لأن تتأكدي من حبي لك ؟

امتلأت عيناها بدموع هانئة وهي تهمس له : أيها الحبيب .. أشعر كأن أحلام عمري كلها قد تحققت وانني لا أريد من الدنيا سعادة أكثر مما أشعر بها الآن.

قال وهو يمسح دموعها بمنديله : لا أريد أن أرى

دموعك بعد الآن .. منذ هذه اللحظة لن يكون في حياتنا أي وقت للدموع.

وفي صوت يحمل رنة أسى وجراح ورائحة دموع من الماضي أكمل قائلاً : سوف نودّع الدموع من حياتنا .. ولن تكون هناك غير السعادة التي سننهل منها إلى الأبد.

« الماضي .. لا يموت »

بدت السماء الخريفية الرمادية بالخارج كأنها سحابة جراح توشك أن تنفجر بالآلام .. وأضواء النجوم الشاحبة البعيدة في السماء مثل دموع ملتمعة فوق صفحة وجه حزين ..

والمنزل الصغير المكون من طابقين تطوقه فرحة طفولية .. رغم العاصفة التي كانت توشك أن تهب من مكان ما.

اندفعت غادة إلى حجرة والدها متلهفة وهي تقول : ألم تنته من ارتداء ملابسك يا أبي .. إن محمود بانتظارك في الأسفل.

قال الأب ضاحكاً : إذا لم يكن هذا الشاب وسيماً فلن أوافق على خطبتك له.

أشرق وجه غادة وهي تقول : إنه أجمل شاب في العالم .. سوف تحبه يا أبي مثلما تحبنا تماماً فهو إنسان رائع.

غمغم الأب وهو يتجه نحو الباب : يجب أن يكون طموحاً أيضاً .. وأن تكون له عائلة كبيرة تتشرف بنا .. كما نتشرف نحن بهم.

وتحرك في بطء هابطاً السلم في وقار وهدوء رجل يعرف قدر نفسه تماماً.

كان محمود يشعر بقلق غامض لا يدري له سببا وهو جالس في الصالون الكبير بمنزل غادة ..شيء ما كان يجعله متوتراً .. ربما الترحيب الزائد من والدة غادة الطيبة .. أو النظرات المتفحصة من أشرف أخيها الصغير .. أو ربما تلك السحب الخريفية المتجمعة في السماء بالخارج والتي جعلت قلبه ينقبض بحزن لا يدري له سبباً.

لاحظ محمود أن المنزل برغم موقعه بأرقى أحياء المدينة، فهو يبدو قديماً كأنما ورثته الأسرة عن أجدادها .. كما أن اثاثه قديم متهالك. وانتبه بدهشة إلى أنه لم يسأل غادة حتى عن عمل والدها .. وكل ما يعرفه عنه أنه كان

موظفاً كبيراً وأحيل إلى المعاش المبكر منذ سنوات قليلة بسبب حادثة أصابته في عمله.

وهمس لنفسه في بعض الحزن : الآن سيكون لي انسان في مكان الوالد .. بعد كل تلك السنين من اليتم والإحساس بوحدة قاتلة .. وبأنني نبتة عاشت عمرها كله في صحراء قاحلة.

وأقبلت غادة فرحة في فستان بنفسجي اللون كأنها وردة ربيعية تفتحت حالاً .. واندفعت لاهثة نحو محمود قائلة : سيأتي والدي حالاً.

في نفس اللحظة تنبه محمود إلى الصورة ذات الإطار المذهّب في ركن الحجرة .. والتي يطل منها وجه قوي يحمل فوق كتفيه رتبة كبيرة في ملابس رجال الشرطة.

كاد محمود يشهق من الانفعال .. كاد يصرخ وهو لا يكاد يصدق عينيه .. شعر أنه في حلم .. كابوس .. وتساءل مذهولاً هل يمكن أن يكون نفس الشخص .. عاد يدقق في الملامح بجنون .. إنه نفس الشخص بلا شك. هو بكل تأكيد .. لا يمكنه أن ينسى تلك الملامح إلى أن يموت ..

تصبب عرقاً .. احتبس صوته .. شعر بالدنيا تميد به .. كأن الماضي يُبعَث حياً في نفس اللحظة .. الماضي الذي أراد أن ينساه ويلقيه وراء ظهره ليبدأ حياته .. وها هو الماضي ينبعث أمامه، نابضاً بالحياة ولا يموت أبداً ويوشك أن يكتم أنفاسه وينتزع روحه انتزاعا.

وتساءلت غادة في دهشة وقد لاحظت اضطرابه :

حمود .. ما بك ؟

في نفس اللحظة ظهر الأب بقامته الطويلة في مدخل صالون .. كاد محمود يغطي عينيه بيديه كأنه يهرب مما يراه أمامه وهو لا يصدق ما يفعله به القدر وسخريته منه وقسوته عليه.

فمن بين كل فتيات العالم لم يختر إلا غادة .. ابنة الرجل الذي سجن والده لسنوات طويلة بعدة تهم .. انتهت بموت أبيه قبل خروجه من السجن بأيام قليلة !

مات والده وهو يهدد بالانتقام من « منصور الدرمللي » .. ضابط الشرطة الذي قام بالقبض عليه في تلك الحادثة التي أراد محمود أن يمحوها من ماضيه ..

ولكن القدر يأبى ذلك في إصرار عجيب .. وها هو يضعه في اختبار رهيب قد يحطمه تماماً.

قالت غادة في اضطراب وهي تلاحظ ما اعترى محمود : هذا هو والدي .. العميد « منصور الدرمللي ».

لم يعد لدى محمود شك .. إنه نفس الاسم .. نهض مترنحا يصافح اليد القوية التي امتدت له .. وقالت غادة تقدم محمود لأبيها : هذا هو الأستاذ محمود عباس المحامي الذي أعمل في مكتبه يا أبي.

لم يظهر على والد غادة أن الإسم يعنيه في شيء .. وجلس وهو يقول : تشرفنا يا ابني.

وبلهجة لا تخلو من الاستنكار تساءل : وأين عائلتك .. أين أبوك وأمك ؟

تمالك محمود إرادته بقوة هائلة حتى لا يفقد وعيه بذلك الإحساس الهائل من الغثيان الذي يطوقه، وقال : لا عائلة لي .. ماتت أمي وأنا في الخامسة من عمري .. ومات أبي وأنا في الخامسة عشرة من عمري.

رانت لحظة صمت قصير .. تساءل الأب بعدها : أليس لك أقارب آخرون ؟

ـ لا.

أجابه محمود بصمت وجفاف .. لم يكن يتخيل أن يتواجه مع ذلك الإنسان يوما ما .. وفي ذلك الموقف الرهيب الذي لم يتخيل حدوثه أبداً .. وتساءل في ذهول، ترى كيف سينتهي هذا الموقف ؟

وحدّق الأب مندهشا في محمود دون أن يفهم سر نظراته الحادة إليه ولاحظ ارتجاف شفتيه وارتعاد أصابعه، وذلك الاضطراب الذي يشمل كيانه بأكمله ويكاد يقتلعه من مكانه، كأنما هناك عاصفة توشك أن تطيح بذلك الكيان المضطرب أمامه.

تساءل الأب بعد لحظة في لهجة من اعتاد توجيه الأسئلة دائماً : ما اسم عائلتك ؟

أجاب محمود : إن والدي يدعى عباس الشربيني.

قطّب رجل الشرطة حاجبيه متسائلاً : ترى أين سمعت هذا الاسم من قبل .. إنه لا يبدو غريباً عني .. أنا واثق أنني أعرف صاحب هذا الاسم حق المعرفة.

لم يكن هناك مفر من المواجهة .. كانت لا تزال هناك فرصة سانحة أمام محمود للانسحاب دون أن يفصح عن

نفسه أكثر من ذلك .. ولكنه أراد أن يتحدى قدره .. ذلك القدر الذي أرسل إليه غادة ليحبها من وسط الملايين .. وها هو ابن اللص قد جاء طالباً يد ابنة الضابط .. نفس الضابط الذي قبض على اللص وألقاه في السجن إلى أن مات موصوماً بالعار إلى الأبد.

كان والد غادة لا يزال يغمغم في حيرة : إنني متأكد بأنني أعرف صاحب هذا الاسم .. لقد ضعفت ذاكرتي هذه الأيام كثيراً.

أجابه محمود في صوت قادم من قلب الماضي قائلاً : سوف أحكي لك حكاية صغيرة يا سيدي .. حكاية وقعت حوادثها منذ خمسة وعشرين عاماً وظن صاحبها أن تلك الحكاية ماتت بفعل السنين والزمن .. ولكنه اكتشف في لحظة فاصلة أن الماضي لا يموت أبداً مهما تعاقبت ء السنين.

تساءل الأب في دهشة : أي حكاية هذه ؟

نطق محمود وعيناه شاردتان قائلاً : كان هناك طفل صغير .. عمره سنوات قليلة .. لم تتح له الحياة أن ينشأ

في أسرة ثرية توفر له أسباب السعادة .. ولكنه كان قانعاً سعيداً مع أمه الريفية الطيبة ووالده العامل في أحد مصانع الأخشاب.

وكان هذا الوالد هو العائل الوحيد للأسرة، وبجنيهاته القليلة التي يتقاضاها أجراً كان يحاول أن يوفّر حياة محتملة لأسرته الصغيرة.

وتاهت عينا محمود لحظة والجميع يطالعونه في دهشة وتعجب .. وأكمل في صوت مطعون بالألم : وذات يوم بتر المنشار الكهربائي ذراع رب هذه الأسرة، ففقد بذلك أسباب الرزق التي كان يعتمد عليها .. وعندما ذهب إلى صاحب المصنع مطالباً بتعويضٍ يتيح له أن يبدأ حياة أخرى ببعض المال، ما كان من صاحب المصنع إلا أن ضربه وطرده من مكتبه .. ورفض أن يمنحه حتى معاشاً ضئيلاً .. وخرج ذلك العامل المسكين والدنيا سوداء في عينيه .. بلا ذراع أو عمل أو مال .. ورأى الجوع يطل من عيني طفله وزوجته فاشتعل قلبه بالكراهية نحو صاحب المصنع الظالم وقرر أن يحصل على حقه بيده الأخرى .. حقه

الذي رأى أنه حق مشروع له .. ولذلك تسلل ليلاً إلى المصنع وحاول سرقة خزينته .. ولم يأخذ منها غير ما ظنه تعويضا مناسباً عن قطع ذراعه، وترك مالاً كثيراً خلفه .. ولكن بعض خفراء الحراسة رأوه وطاردوه فسقطت منه النقود التي استعادها صاحب المصنع .. ولكنه تحول إلى لص في نظر القانون الذي قبض عليه وأرسل به إلى السجن .. ولكنه استطاع الهرب قبل محاكمته .. ولم يعد بوسعه الذهاب إلى ابنه أو زوجته ولا الذهاب إلى أي مكان .. ولا كان معه أي مال يمكن أن يوكّل به محاميا يدافع وعنه ويصلح للعدالة ميزانها المعوج ويبدد عتمة نصوصها العرجاء، التي لا ترى غير جانب وحيد من الحقيقة.

توقف محمود لحظة لاهثا .. وحدقت فيه غادة دون أن تفهم شيئاً .. وظهرت الريبة في عيني والدها كأنه لا يصدق خاطرا جال بباله .. أو كأن ذكرى قديمة تكاد تندفع إلى ذاكرته.

وواصل محمود قائلا : وتحول ذلك الإنسان البسيط

المسالم إلى مجرم هارب من العدالة من أجل أن يطعم طفله وزوجته، وكان يختفي في مكان مهجور عندما اكتشف مكانه أحد الضباط فحاول القبض عليه .. فما كان من ذلك المجرم الهارب من العدالة إلا ان حاول استرداد حريته، فالتقط حجراً يدافع به عن نفسه فأصاب ضابط الشرطة في قدمه .. فترك عاهة مستديمة في تلك القدم ..

لمعت عينا والد غادة ببريق جنوني وارتعدت أوصاله، ولكن محموداً لم يلتفت إليه وواصل قائلاً : هكذا أضيفت تهمة أخرى إلى العامل المسكين الذي فقد كل شيء .. ذراعه وعمله وحريته وأسرته الصغيرة .. وحكم عليه بالسجن عشر سنوات للسرقة ولإصابة ضابط الشرطة .. ولم يجد ذلك الأب المسكين من يقف بجواره .. لم يجد حتى محامٍ مبتدئ لا يكون همه المال بقدر ما يكون همه إظهار الحقيقة وكشف وجه العدالة المستور.

وصمت محمود لحظة لاهثاً، كأنما آلمته الذكرى الحزينة، ثم واصل بعينين شاردتين :

وبعد قليل ماتت الزوجة من الحزن .. ولم يجد الطفل

الصغير مكانا يأويه غير ملجأ الأيتام .. ونما الحزن في قلبه كشجرة صبار هائلة راسخة الجذور في قلبه .. ونذر نفسه أن يصبح إنساناً مستقيماً .. أن يحارب الظروف والقدر مهما حاولا معاكسته .. وكان يعرف أن سلاحه الوحيد في أن يتعلم .. أن يكون العلم هو مهنته وحصنه وملاذه .. أن يكون العلم هو أداته التي يحقق بها العدل لنفسه وللآخرين .. وكبر ذلك الطفل .. حتى دخل الجامعة .. وصار يعمل لينفق على نفسه .. واختار كلية الحقوق ليمتهن مهنة الدفاع عن المظلومين الذين طحنهم القدر، فلم يجدوا من يقف بجوارهم ويكون لسانهم الذي يشكون به من الظلم .. وعندما تخرّج من الجامعة كان الأول على دفعته ولكن ماضي والده الملوث لم يسمح له بالعمل كمعيد في الجامعة أو كوكيل نيابة فاختار المحاماة عن رضى .. ووهب نفسه للمظلومين حتى لو كان ذلك دون أجر .. وقرر أن يغلق قلبه ومشاعره وأن يحيا وحيداً حتى لا يضطر يوماً إلى كشف ماضيه المؤلم أمام من يختارها شريكة لحياته .. ولكن القدر نفسه ساق إليه من أحبها .. ومن فتح قلبه لها رغماً عنه .. ومن العجيب

أن تلك الإنسانة التي أحبها هي نفسها ابنة الرجل الذي كان سبب تعاسته وشقائه .. وإن كان لم يكرهه أبداً لأنه كان يؤدي واجبه برغم كل ما سببه له من آلام ودمار.

صاح والد غادة في غضب جارف : أنت ابن ذلك اللص .. لقد تذكرت الآن .. كان اسم هذا الوغد « عباس الشربيني ».

أجابه محمود في هدوء : حتى لو كان والدي لصا كما تقول فليس في ذلك ما يدينني .. بل بالعكس إنني أفتخر بكل ما فعلته في حياتي، فقد كان طريق الانحراف ممهداً وسهلاً أمامي ولكني اخترت الطريق الصعب .. طريق المعاناة والشرف .. وها أنا أقف أمامك صفحة بيضاء خالية من الأخطاء.

حملقت غادة في محمود وقد تكشفت لها كل الحقائق التي كانت مستورة عنها .. وشعرت بالشلل يجمّدها ويمنعها حتى من التنفس .. في تلك اللحظة فقط عرفت لماذا كان محمود يبدو متحمساً للدفاع عن المظلومين حتى بلا أجر .. ولماذا عمل بالمحاماة رغم أنه كان الأول على

دفعته .. وعرفت سر تلك النظرة الحزينة المجهولة في عينيه الرماديتين بلون السحب الخريفية.

وهبَّ والد غادة في ثورة جنونية صارخاً : أيها السافل .. لقد كان والدك المجرم سبباً في خروجي المبكر من الشرطة رغم ما كان ينتظرني من مركز مرموق، بسبب إصابته لي عند القبض عليه .. والآن ..

وفي صوت كالفحيح أكمل في استنكار وكراهية : الآن تأتي إليّ طالبا يد ابنتي ؟

محمود : ولا زلت أطلبها .. فلم أفعل ما أحاسب عليه.

امتدت يد والد غادة في صفعة قاسية على وجه محمود صارخاً : أيها الوقح .. أقسم ألا أدعك تخرج من هنا إلا إلى قسم الشرطة .. أيها اللص .. هل جئت هنا للسرقة أم للابتزاز ؟

وأمسك الأب بمحمود ينهال عليه صفعا ومحمود يحتمله صامتاً وعيناه مقتولتان بحزن لا نهاية له.

وصرخت غادة واندفعت نحو والدها باكية وهي تصيح :

دعه يا أبي .. لا ذنب له فيما فعله والده .. لا تحاسبه على خطأ لم يرتكبه.

صاح والدها وهو لا يزال يمسك بخناق محمود : يكفي أنه ابن ذلك المجرم ليكون مجرماً مثله .. فلا يخرج من صلب المجرمين غير مجرمين آخرين .. وكهوف الظلام لا يخرج من أوكارها غير الفئران والحيات والعقارب السامة.

تضرعت غادة باكية إلى والدها : إن الله لا يحاسب الانسان إلا على أفعاله .. ويكفي محمود فخراً أنه لم يخطئ وينحرف برغم كل الظروف السيئة التي أحاطت به .. يكفي أنه نذر حياته كلها للدفاع عن المظلومين حتى دون أجر .. إنني أقبله يا والدي زوجا لي وأفخر وأتشرف به.

ـ أخرسي.

ورنت صفعة الأب على وجه غادة في صوت مدوي.

لأول مرة في حياته يضربها.

صرخت غادة من الألم وترنحت في مكانها .. وارتعد أشرف .. وجمدت الأم في مكانها كالمشلولة فقد اعتادت دائماً أن تنكمش وتتضاءل أمام إرادة زوجها .. وخطا

محمود يغادر المكان بوجه تملأه خدوش أظافر الأب وقميص ممزق ..

وصاح الأب في غضب نحو محمود : امسكوا هذا المجرم .. لا تدعوه يهرب قبل مجيء الشرطة للقبض عليه.

ولكن صوته ضاع وسط صرخات الأم .. عندما تهاوت غادة فاقدة الوعي.

« العاصفة »

قال الطبيب بعد أن فحص غادة : إنها مصابة بصدمة عصبية وبحاجة إلى راحة تامة للعلاج.

وبعد انصراف الطبيب غمغم الأب في صوت ينضح غضباً : إنها تستحق الموت .. لقد جلبت لنا العار .. لم يبق إلا أن تأتي بمجرم وابن لص لنا ليخطبها فيلوث سمعتنا وشرفنا.

قالت الأم باكية : وهل كانت تعرف حقيقته .. لقد فوجئت بحقيقته مثلنا تماماً.

قال الأب في كراهية عميقة : لو لم يبادر ذلك المجرم بالهرب لاستدعيت له الشرطة .. من العجيب أنهم باتوا يسمحون لأبناء المجرمين وأرباب السوابق أن يتعلموا ويدرسوا ليتساووا مع أبناء الفضلاء من الناس.

ثم التفت إلى ابنه أشرف غاضباً : لماذا لا تذهب إلى حجرتك وتستذكر دروسك .. هل نسيت أنك مقبل على شهادة الثانوية ويجب أن تستعد للمذاكرة مبكراً ؟

غمغم أشرف في ضيق : وهل سأبدأ المذاكرة من بداية العام الدراسي ؟

وغادر المكان يملؤه إحساس بالرفض للقيود التي تكبله من كل الجهات .. وإحساس بالعجز والمعاناة لاشياء كثيرة يحتاجها .. ولا يجد من يلبيها له.

وبقيت الأم بجوار ابنتها الفاقدة الوعي تبكي بحرقة .. والأب لا يزال يغمغم في كراهية وثورة : هذا المجرم .. إن والده هو المتسبب في هدم مستقبلي .. أقسم لو لم يسارع بمغادرة المكان لأرسلته إلى السجن بتهمة السرقة .. فمن المؤكد أنه ما جاء هنا إلا لسرقة المنزل .. بعد أن خدع ابنتي وأوهمها بأنه يريد الزواج منها.

* * *

تقلب محمود فوق فراشه كأنه يعاني من الحمى .. وصوت والد غادة يرنُّ في أذنيه : يكفي أنه ابن ذلك

المجرم ليكون مجرماً مثله .. فكهوف الظلام لا يخرج من أوكارها غير الحيات والعقارب السامة.

امتلأت عينا محمود بالدموع وهو يسترجع ما حدث .. دموع كان قد نسيها وجفت من مآقيه منذ سنوات بعيدة ..

دموع كان قد أقسم ألا يذرفها أبداً وأن يتحدى الحياة بإرادته وأن ينسى ما كان .. ولكن الماضي بُعث من قبره .. والدموع عادت إلى عينيه كأنها قطرات دماء من قلبه المطعون لن تكف عن النزيف أبداً.

وهتفت أعماقه : أيها القدر الظالم .. لماذا تقسو عليّ دائماً ؟ لماذا جعلت من أبي لصاً ومجرماً .. ولماذا تصر على إدانتي بنفس التهمة إلى النهاية .. وتجعلني أدفع الثمن مضاعفا وأعاقب على جريمة لا ذنب لي فيها ؟

وصرخ في ألم : ماذا أفعل أكثر مما فعلت لكي ينسى الناس تهمة أبي ويمنحوني صك الشرف والبراءة .. هل كان ذنبي إنني كنت ابناً لذلك الرجل الذي أجبرته الظروف أن يتحول إلى لص .. وحتى لو كان لصاً ومجرماً فيكفي فخراً أنني لم أسلك طريقه وشققت طريقي بأظافري وسط صخور قاسية .. لقد كنت نبتة خضراء سقطت في أرض

سوداء قاحلة .. ولكنها قاومت كل عوامل الفناء والظلام وأنبتت أوراقاً وثماراً .. فلماذا يريدون اقتلاعها ومعايرتها بأنها نبتت من أرض سوداء ولا ينظرون إلى كفاحها وأوراقها الخضراء وثمارها اليانعة ؟

وخبط الحائط بقبضته .. شعر كأن الماضي هو قدره الذي لا مهرب منه .. سنوات طويلة وهو يحاول أن يبني مستقبله وينسى الماضي .. أن يواجه الناس باسمه هو وذاته هو .. حاول أن يجعل الناس تشير نحوه وتنسى من كان أبوه .. وكان ذلك كله بلا فائدة ..

وحتى القدر بدا وكأنه يتحداه .. يرفض أن ينسى الماضي وأن ينساه الناس معه .. وحكم عليه بموت دائم حتى وهو حي يتنفس .. حكم عليه بأن يعيش مطارداً من الماضي ملوثاً لا يمكنه أن يهرب منه أبداً، يسجنه داخل قضبانه إلى الأبد.

وامتدت قبضته في غضب هائل نحو المرآة التي عكست صورته المشوشة أمام عينيه .. فتحطمت المرآة واندفع دم غزير من أصابعه الجريحة.

* * *

بدأت غادة تستعيد وعيها ..

مرت أيام عديدة كانت خلالها تئن وتتألم بلا وعي .. تذرف دموعا بلا إرادة ..

وتتحرك شفتاها في وهن لتنطق بكلمة واحدة .. محمود.

وعندما فتحت عينيها بدت ذابلة شاحبة مريضة .. كوردة امتص ماء حياتها وييس عودها وجف شذاها.

بدت كجسد عليل مسكون بروح ميتة .. وذكرى مريرة قاتلة تنشب أظافرها في عقلها وتكاد تفتك بها .. وأمها جالسة أمامها تبكي بلا انقطاع.

طافت بذاكرتها ذكرى حبيبها محمود وهو واقف أمام منصة القضاء مترافعاً : « إن العدالة تناشدكم ألا تقتصوا من إنسان بنصوص عمياء لا تبصر إلا وجه الاتهام .. فلن يدفع الثمن هذا الأب فقط إذا ما حكمتم بسجنه !! »

فكأنه كان يدافع عن نفسه .. يحمي الآخرين من قسوة حياة عاشها ومرارة تجرعها ولا يريد للآخرين الاكتواء بنارها. وطاف بذهنها لحظة أن قال لها : « كانت حياتي قبلك جدباء قاحلة مثل صحراء ميتة لا أمل لها في أن تنبت أرضها غير الآلام والمعاناة والذكرى الحزينة .. وعندما

ظهرت أنت في حياتي تفجر في قلبي نهر من المشاعر أحيا هذه الصحراء الميتة وأنبت فيها ورودا وآمالاً. لم يكن من شك أنه أحبها قدر حبه لنفسه .. كانت هي أمله في حياة جديدة .. وها هي قد حطمت أحلام سعادته من قبل أن تبدأ، وكانت سبباً في شقائه إلى الأبد .. وصوته المسترجي أمام أبيها يقول له : « ها أنا أقف أمامك صفحة بيضاء خالية من الأخطاء ».

وأبوها يلطمه بعنف ويصرخ فيه : « يكفي انك ابن ذلك المجرم لتكون مجرما مثله ».

بكت غادة بحرقة ومرارة .. وهمست تسأل أمها : أين هو . ؟ كيف حاله . ؟ ماذا حدث له بعد أن أهانه أبي وطرده من منزلنا ؟

قالت الأم باكية متوسلة : انسيه يا ابنتي .. انسي أنك عرفتيه.

ــ كيف أنسى الإنسان الوحيد الذي خفق قلبي بحبه ؟

ــ إنه لا يستحقك.

ــ بل أنا التي لا تستحقه.

ــ إنه ليس إلا ابن مجرم.

ـ ومن منا كان له الفضل في اختيار أبيه أو أمه ؟
ـ لا يكون الابن إلا مثل أبيه.
ـ ولكن شجرة الشوك تزهر ورداً والصخور تُنبت أزهاراً من شقوقها .. وحتى شجرة الصبار المرة تنبت ثماراً حلوة.
ـ لن يكون إلا صورة عن أبيه مهما فعل.
ـ لو عرفت محمود مثلي ما قلت ذلك أبداً عنه .. إنه أشرف إنسان عرفته في حياتي.
ـ سوف يظل الناس يوصمونه إلى النهاية بجريمة والده فلماذا نشاركه تلك الوصمة ؟
ـ هذا ظلم .. كيف نرضى بالظلم للآخرين ونكرهه لأنفسنا ؟
ـ الدنيا لا تسير بمنطقنا وحدنا.
ـ لو كانت الدنيا على خطأ لوجب علينا تغييرها وليس الاستسلام لأخطائها.
ـ أبوك لا يطيق سماع اسمه .. إنه يكرهه كراهية لا مثيل لها.
ـ كان على أبي أن يحبه مثلما يحبني .. لأنني اخترته وحده شريكاً لحياتي.

ـ هذا لن يكون أبداً .. لو سمعك والدك تنطقين تلك العبارة مرة أخرى لقتلك.

ـ إذن دعوني أموت الآن .. فلا أريد الحياة ما دمت سأعيش فيها بعيداً عن الإنسان الذي أحبه قلبي .. الإنسان الذي كره الظلم ووهب حياته دفاعا عن المظلومين .. ونحن نضن عليه بأبسط حقوقه .. في ألا نظلمه دون وجه حق .. وألا نعاقبه على جريمة لم يرتكبها.

وأغمضت عينيها المليئتين بالدموع .. وشملتها نوبة أخرى من فقدان الوعي.

* * *

تساءل عم إبراهيم في دهشة وتعجب : ماذا قلت يا أستاذ ؟

أجابه محمود في غضب وتعنيف : هل أصابك صمم فلم تعد تسمع .. أخبرتك بطرد هؤلاء الزبائن المنتظرين بالخارج .. منذ الآن لن يستقبل مكتبي غير أصحاب القضايا الكبيرة.

تساءل الساعي العجوز : أي قضايا ؟

أجابه محمود في قسوة : أي قضايا يستطيع أصحابها دفع أتعابها .. ولو كانت قضايا مخدرات أو حتى قضايا قتل .. أما هؤلاء من أصحاب القضايا الصغيرة ومن يشكون من الظلم فليبحثوا عن محامٍ غبي آخر .. يتبنى قضاياهم ويدافع عن الأوهام ويحارب طواحين الهواء دون حتى أن يحصل على أتعابه.

تطلع الساعي العجوز إلى محمود في دهشة عميقة .. لأول مرة يراه على تلك الحال من الغضب والحدة .. وأذهله التغير الذي طرأ على محمود .. وخمّن أن الأمر قد يكون له علاقة بغياب غادة الأسابيع الماضية واعتكاف محمود عن العمل، والاجازة الطويلة التي حصل عليها. ثم التغير العجيب الذي طرأ عليه بعد عودته من الاجازة وتلك الإصابة التي تركت أثرها في يده.

تحرك إبراهيم الساعي نحو باب حجرة المكتب .. والتفت إلى محمود في مرارة قائلاً : لن أستطيع أن أطرد هؤلاء المساكين من المكتب .. إنك آخر أمل لهم فلا تقتل هذا الأمل.

هتف به محمود : إذن أعتبر نفسك مفصولاً من هذه اللحظة .. وسأخرج أنا لطرد هؤلاء الحثالة حتى لا يعودوا هم أو أمثالهم إلى مكتبي مرة أخرى.

واندفع محمود خارجاً من الحجرة كالعاصفة المدمرة.

« البقعة السوداء »

راح والد غادة يراقب ابنته وهي تهبط السلم ..

بدت وكأنها ليست ابنته .. ليست غادة الشابة الجميلة المرحة المنطلقة التي كانت تسكن قلبه وتملأ حياته سعادة وفرحة.

بدت مثل امرأة عجوز تكاثرت عليها المصائب فامتصت رحيقها وبدا وجهها مصفراً وعيناها غائرتين تحتهما هالات سوداء من الأحزان .. وشعرها قد تجعّد حول رأسها في خشونة، وحتى بدنها أصبح هزيلا ضعيفاً تمارس صاحبته قدراً هائلاً من القوة فقط لتستطيع أن تتماسك وتسير فوق قدميها دون أن تتهاوى.

تمزق قلب الأب لما يراه. ولكن ملامحه الصلبة أخفت جراحه وأحزانه، فقد اعتاد دائما أن يخفي مشاعره بداخله.

كان موقناً بأنه على ابنته أن تتجرع الدواء المر لتشفى في النهاية .. فكيف يمكنها أن تفكر لحظة في أن ترتبط بابن مجرم .. وهي التي عاشت عمرها كله مع أب مهنته مطاردة المجرمين ؟

كيف يمكن أن يكون حفيده .. هو حفيد مجرم أرسله إلى السجن يوماً ما ؟

غمغم لنفسه في مرارة : إنها صغيرة لا تدرك منطق الحياة وطبيعة الأشياء .. ويوما ما سوف تنسى وتشكرني لأنني أعدتها إلى صوابها .. حتى لو كان في ذلك بعض الظلم لشخص ما.

واقترب من ابنته .. همس في رقة يسألها : كيف حالك يا ابنتي ؟

هزت غادة رأسها في وهن وشفتاها ترتعدان كأنهما لا تقويان على الحديث.

ومد يديه يساعدها على الجلوس .. ولكنها ابتعدت عن اليدين الممدودتين كأنها لا تراهما .. واقتربت من النافذة المفتوحة .. وراحت تتطلع إلى قرص الشمس المنحدر إلى الغروب في الأفق. كانت حياتها أيضا توشك على

الغروب .. مثل قرص شمس توهَّج في السماء لحظات معدودة .. ثم انحدر إلى الظلام والعتمة.

اقتربت أمها وهي تراقبها في حزن .. تبادلت مع زوجها نظرة مسكونة بالمرارة .. لكم تغيرت ابنتها وصارت كأنها شبح إنسان .. حتى بعد أن غادرت فراشها بدت أشد مرضاً .. كأن جسدها أصبح مسكونا بكل أمراض الدنيا.

صارت إنطوائية .. تظل ساعات وحدها وعيناها تحدقان في الأفق البعيد .. تمتنع عن الطعام لأيام ولا تأكل إلا إذا تقطعت عينا أمها من البكاء أمامها. وكفًّ لسانها عن الحديث .. كأنها تريد أن تقاطع هذا العالم الذي صارت تعيش فيه رغماً عنها.

وأشفقت الأم على ابنتها .. كانت تتمنى لو استطاعت أن تفعل لها شيئاً .. ولكن ما الذي يمكنها أن تفعله أمام أبٍ اعتاد أن يأمر فيطاع .. وحتى هي، هل كان يمكنها أن تتصور لحظة أن تتزوج ابنتها من شاب كان والده لصا .. مهما بلغ هذا الابن من مركز مرموق ؟

وامتلأت عينا الأم بدموع غزيرة سالت فوق وجنتيها بلا صوت ..

وراحت غادة تراقب الشمس المحتضرة .. همست إليها : « أيتها الشمس العظيمة .. لماذا يموت ضؤوك كل يوم ويتحول إلى ظلام وعتمة .. لماذا ترحلين كل آخر نهار ولا تستقرين فوق أرواحنا المعذبة التي يسكنها الظلام .. والتي تبحث عن بقعة ضوء .. أيتها الشمس .. لماذا كانت سعادتنا مثلك تماما .. تتألق وتنير العالم بالضياء والبهجة .. ولكنها لحظة سعادة قصيرة العمر .. تنحدر إلى المغيب دائما .. إلى الغروب والظلام والأحزان .. حيث تفترسنا المرارة والندم بقية حياتنا دون أن تكون لنا إرادة في أن نصنع سعادتنا بإرادتنا .. وحتى أنت أيتها الشمس العظيمة لا يمكنك أن تقاومي الرحيل .. وليس لك إرادة في أن تمنعي المغيب .. وأن يأتي بعد ضياءك وإشراقك .. ظلام وأحزان.

واستدارت غادة نحو والديها .. كأنها تواجه مصيرها المحتوم.

وفي نفس اللحظة قرع الباب .. وأفاق الجميع من أحزانهم .. غمغم الأب في قسوة : هذا الأحمق أشرف لا بد أنه نسي مفتاحه كعادته .. لقد صار كثير الخروج

والتأخر لدى أصدقائه .. أقسم أن أعاقبه هذه المرة فقد ضقت باستهتاره وتهوره.

ولكن الواقف بالباب لم يكن أشرف .. بل ضابط شرطة برتبة نقيب.

وتساءل الضابط للأب: سيادة العميد معاش « منصور الدرمللي » ؟

ـــ أنا هو.

ـــ سيادة المأمور يريدك في قسم الشرطة.

ـــ يريدني أنا .. لماذا ؟

ـــ الأمر يتعلق بابنك أشرف.

هتف الأب بألم كمن تلقى طعنة في القلب : ماذا .. أخبرني .. ماذا فعل أشرف .. ماذا هناك ؟

وأمسك بالضابط الصغير يهزه في عنف وقسوة كأنه المسئول عما حدث .. فتخلص منه الضابط في رفق قائلاً : إنني لا أعلم شيئا يا سيدي.

وغادر الضابط المكان .. وبقي الأب واقفا وفي عينيه نظرة مذهولة كأنه يصارع قدراً أقوى من كل إرادة .. ولم يستطع عقله استيعاب الاحتمالات التي كانت تتصارع

في ذهنه فصرخ بلا وعي : مستحيل .. مستحيل.

واندفع كالمجنون إلى قسم الشرطة .. واقتحم حجرة المأمور بلا استئذان.

وهناك كان أشرف جالساً في ركن الحجرة .. مذعورا مثل أرنب .. تكسو وجهه ملامح مقتولة من إحساس هائل بالذنب.

وأمسكه الأب صارخاً : ماذا فعلت .. أخبرني ؟

ولكن أشرف زاد في انكماشه وراح يبكي .. وقال المأمور في هدوء : أرجوك استرح يا سيادة العميد.

تنبه الأب مندهشاً .. كان المأمور أحد مساعديه منذ سنوات بعيدة .. كان يعرفه حق المعرفة .. ولطالما عملا سوياً من قبل.

وجلس الأب والعرق ينسال غزيراً فوق جبهته وهو يسأل : ماذا حدث ؟

ــ ابنك .. لقد قام بسرقة سيارة مع بعض زملائه.

انتفض الأب في عنف وثورة صائحاً في المأمور كأنه يدافع عن شرفه هو : ماذا تقول .. ان ابني ليس لصا .. لعل أصدقاءه خدعوه وركبوا السيارة بغرض التنزه .. كثير

من الشباب يفعلون ذلك دون أن يكونوا لصوصاً.

تحدث المأمور في هدوء قائلاً: إن الأمر لم يقتصر على ركوبهم السيارة .. بل ذهبوا بها إلى أحد تجار السيارات المسروقة في الدراسة وباعوها له .. وأمسكنا بهم بعدها بقليل .. وجريمة السرقة واضحة وثابتة عليهم.

ترنح الأب .. غامت الدنيا أمام عينيه .. ها هي الجريمة مكتملة الأركان أمامه .. واللص هو ابنه .. ابن الرجل الذي عاش عمره كله يحارب اللصوص والمجرمين ويقتص من كل خارج على القانون.

كان صفحة بيضاء ناصعة الشرف حتى لحظة قصيرة .. وها هي بقعة سوداء تلطخها وتمسح كل تاريخه الناصع رغما عنه .. ابنه الذي أراده رجل قانون ليواصل مسيرته .. ها قد صار مجرماً ولصاً .. ومطارداً من القانون لا حاميا له، كما أراد له أن يكون. نهض يزأر كالمجنون .. إنهال على ابنه ضربا وهو يصرخ كالوحش .. واندفع إليه المأمور يحاول تخليص أشرف منه ..

وقال له في هدوء: يمكنك أن تأخذه وتذهب به إلى

البيت .. إنني لم أشأ تحرير محضر بما حدث إكراما لك وحتى لا يضيع مستقبله.

صرخ الأب : أي إكرام تريده لي وأي مستقبل تخشى أن يضيع من هذا المجرم اللص .. إن ابني لم يشأ أن يحافظ على كرامتي وتاريخي وامتدت يداه إلى السرقة فصار مجرما من واجبكم أن تقبضوا عليه وتحاكموه وتسجنوه .. ما ذنب الآخرين في أن يلقوا عقابهم وحدهم .. هل لأن آبائهم لم يكونوا ضباط شرطة سابقين وليس لهم ما لي من نفوذ. وهل لو تركنا كل مجرم يفلت بجريمته ستصطلح الأمور وتستقيم .. لا .. لقد أخطأ ابني وسرق وخرج عن القانون ويجب أن يعاقب .. يجب أن يُعاقب لأنه صار لصاً .. صار مجرماً يجب أن يلقى عقابه ولو دفع عمره كله ثمنا لذلك .. إنني لم استثنِ أي انسان في حياتي من تطبيق القانون .. فهل آتي الآن واستثني ابني ؟

وراح يبكي كطفل صغير إذ فَقَدَ كل ما يملك في لحظة واحدة.

وصرخ أشرف في ذعر : لا يا أبي .. لا تدعهم يسجنوني .. لقد سرقت رغماً عني .. سرقت بسبب

حرماني من أشياء كثيرة .. أشياء جميلة يمتلكها أصدقائي وأحرم أنا منها لأن أباءهم أكثر ثراء منا.

قال الأب من بين دموعه : هناك غيرك من كان محروماً من أشياء كثيرة تمتلكها .. محروم حتى من حنان الأب .. محروم من أن يكون له جدران تأويه وتمنع عنه الحر والبرد .. محروم حتى من أن يعيش بلا ذنب يحمله فوق كتفيه ولكنه برغم ذلك لم ينحرف ولم يسرق .. فأي عذر كان لك أنت أيها المجرم الشقي ؟

ورفع الأب يده ليهوى بها فوق وجه ابنه .. ولكن اليد تجمدت في الهواء .. وتحجرت نظرة الأب وأصاب لسانه التلعثم وجحظت عيناه ..

ثم سقط على الأرض مصاباً بشلل نصفي.

« عدالة السماء »

طرقت السكرتيرة الحسناء مكتب محمود .. وأطلت من الباب يسبقها عطرها الفواح وهي تقول : سيدة ترغب في رؤيتك.

ــ بخصوص إحدى القضايا ؟

ــ لا أدري .. فإن هيئتها لا توحي بشيء .. ولا يبدو عليها غير الضعف والمرض والحزن.

بدت الدهشة على وجه محمود .. وتساءل : ألم تخبرك عن اسمها ؟

ــ إنني غادة.

جاء الصوت ضعيفا واهناً من خلف السكرتيرة التي أوسعت الطريق .. وما كاد محمود يسمع الاسم ويرى صاحبته حتى أصابه ذهول عميق .. وهب واقفاً بلا وعي

وهو يردد : أنت ؟

وحدق في غادة غير مصدق ما تراه عيناه .. ذلك البدن الهزيل والوجه الشاحب والعينين الذابلتين ونظرة الحزن الساكن في أعماقهما .. كان يظنها تعيش هانئة سعيدة اعتبرت حبها له غلطة أفاقت منها بسرعة.

ظنها تزوجت .. أو ارتبطت بمن يليق بها وباسرتها .. ممن لا يشوب ماضيه أي شائبة .. ظنها ترفل في السعادة والهناء مع أب يفتخر بماضيه وحاضره.

ظل محمود ينظر إلى غادة بعدم التصديق .. وانسحبت السكرتيرة في صمت .. وقالت غادة في وهن : هل تسمح لي بالجلوس .. لم تعد صحتي تحتمل الوقوف طويلاً.

أشار لها أن تجلس .. وغمغم في ذهول : ما الذي فعل بك ذلك ؟

نكست رأسها بعينين ذبل التماعهما وهي تقول : وهل ظننتني سأسعد بأن فرقت الأيام بنا .. كان حبي لك فاصلا ما بين عالم من السعادة كنت أعيشه .. وعالم من الشقاء صرت أحيا فيه.

ورفعت إليه عينين مليئتين بالدموع وهي تقول : أعلم

أنك لا ترغب في رؤيتي وتريد أن تنساني .. إنك حانق عليّ وربما كرهتني لأنني لم أقف بجوارك واختارك رغما عن أسرتي .. ولكن صدقني لم يكن بوسعي أن أفعل شيئا .. لم أكن أستطيع أن أتحدى إرادة الأب الذي عشت عمري كله تحت ذراعيه وحنانه وحبه.

قال في قسوة : لم أطلب منك شيئا .. ما حدث لم يؤثر بي على الاطلاق.

قالت في مرارة : ولكن ما أراه أمامي الآن يؤكد لي عكس ذلك .. تلك السكرتيرة الحسناء .. وتلك النوعية الجديدة من العملاء الأثرياء .. لقد تغيرت كثيراً وأنا أشعر بأنني السبب في كل ما حدث من تغير لك .. ولكنك لم تدفع الثمن وحدك .. أنا أيضا دفعته معك .. فقد صرت مجرد ذكرى مؤلمة لإنسانة أخرى كانت تعيش بداخلي .. وفقدت الرغبة في الحياة يوم أن فقدتك.

كاد قلبه يهتز من الفرحة .. كانت باعترافها تؤكد له أنها ما أحبت غيره .. وأنها تعتبره الحياة نفسها، وبدونه لا رغبة لها في أن تعيش لحظة واحدة .. وأن لا أحد غيره يسكن حياتها حتى تلك اللحظة.

ولكنه كبت مشاعره وقسا على قلبه .. يكفيه ما حدث وما سببته له من شقاء. واكتسى صوته بلهجة قاسية وهو يسألها : أهذا هو ما آتى بك الآن بعد تلك الشهور الطويلة، هل أردت استرجاع الماضي والبكاء عليه .. من المؤسف أنه لا وقت لديّ لسماع ذلك.

عضت غادة شفتيها حتى كادت تدميهما .. وقالت بصوت مختنق بالبكاء: لم أجئ اليك بسبب ما مضى .. ولكني جئتك بصفتك محامٍ أريده أن يتولى قضية تخصني.

ــ محامياً ؟ تساءل بدهشة .. وأكمل بنفس اللهجة الساخرة : ترى أي القضايا تريدينني أن أترافع فيها .. وكيف وافق أبوك أن تذهبي إلى محامٍ كان والده مجرماً ليترافع لك في قضية تخصك .. ألا يؤثر ذلك على شرف العائلة ؟

قالت بمرارة : إن والدي لا يعرف إنني أتيت إليك .. لقد أخبرته إنني سأذهب إلى محامٍ .. ولم أخبره إنني سآتي إليك بالذات.

سألها في تحد : ولماذا أنا بالذات ؟

أجابت والدموع تخنقها : لأنني واثقة أن القضية التي

جئتك من أجلها .. لن يمكن لمحامٍ آخر غيرك أن يكسبها .. إنها قضية تتعلق بسمعة إنسان وشرفه .. بمستقبله الذي يمكن أن يتدمر في لحظة واحدة إذا لم يجد من يدافع عنه بإخلاص.

قال ساخراً : لقد توقفت عن قبول مثل هذه القضايا منذ زمن.

قالت بتوسل : حتى لو أخبرتك أن تلك القضية تخص أخي ؟

بدهشة تساءل : أخوك ؟

أكملت في مرارة : وبسببه أصيب والدي بشلل نصفي .. وتكاد العواصف أن تقتلع حياتنا كلنا.

هتف محمود في دهشة عظيمة : ماذا حدث ؟ أخبريني ؟!

وأخبرته غادة .. أخبرته من بين دموعها بما حدث .. وكيف تحول ابن الضابط الكبير إلى لص بسبب المال.

فوجئ محمود .. لا يكاد يصدق .. ارتعدت أوصاله .. تخيل للحظة ذلك العملاق الجبار والد غادة وهو يصفعه ويتهمه بالإجرام واللصوصية بلا ذنب .. ثم وهو ينهار

مشلولاً موصوماً بأنه أنجب لصاً ومجرماً .. أي تصرفات عجيبة يفعلها القدر في حياتنا ؟

غمغم محمود مذهولاً : أخوك أنت سرق سيارة .. وقُبض عليه .. وصار لصاً ينتظر المحاكمة ؟

ـــ ورفض أبي تحرير محضر بالواقعة .. فقد أراد أن يأخذ أخي عقابه.

ـــ والآن هو يبكي نادماً .. ويريد إخراج ابنه من السجن بأي ثمن .. يبكي بسبب وصمة العار الذي تكاد تلحق بماضيه ومستقبله .. يبكي على سمعته التي توشك أن تلوكها الألسن.

كان في صوت محمود لهجة تشفي وقسوة لم تخف على غادة .. فراقبته بدهشة وجراحها تتزايد .. وأكمل محمود بنفس اللهجة : والدك الذي عايرني بأبي الذي لم يكن لي إرادة في اختياره أباً لي .. ها هو المجتمع بأكمله يوشك أن يعايره بابنه .. الذي كان يعيش تحت ظله ومبادئه ومسئوليته.

قالت غادة ودموعها تسيل : كأنك تتشفى بأبي ؟

أجابها في قسوة هائلة : وكيف لا أتشفى فيه .. وقد

أنجب اللص محامياً شريفاً .. أما الضابط الكبير فأنجب لصاً صغيراً .. ما أعجب عدالة السماء .. فكما تدين بلا رحمة .. تُدان أيضا وبلا رحمة .. كما تغلق قلبك عن كلمة الرحمة .. فإن السماء أيضا تغلق قلبها عن رحمتك ..

انفجرت غادة باكية .. قالت منتحبة : لم أكن أظن إنني سأسمع منك هذا الحديث .. جئت اليك لتساعدنا في إنقاذ حياة إنسان قد تضيع في لحظة واحدة.

قال محمود في ثورة :

ــ وأنا .. أنا من يعيد لي حياتي الضائعة .. من يعيد لي فرحتي التي ماتت .. من يعيد لي قصة كفاح وشقاء وطأها أبوك بقدمَيْ قسوته دون أي رحمة أو شفقة.

نشجت باكية : لو كان معي أي نقود أو حلى لبعتها وذهبت إلى محامٍ آخر .. ولكن جئت إليك لأنني لا أملك مالاً أدفعه .. ولم أكن أظن أنني سأجد أمامي إنساناً آخرَ .. جئت إليك لأنني ظننت أنني سأرى نفس الإنسان الذي أحببته وأخلصت له حتى هذه اللحظة .. الإنسان الباحث عن العدالة له وللآخرين .. جئت إليك لتنقذ أخي مما

هو فيه .. تنقذ مستقبله ... فلن يصنع منه السجن إلا مجرماً حقيقياً .. ولكن يبدو أنني أتيت متأخرة .. وأن الإنسان الذي جئت أنشد مساعدته لم يعد له وجود في هذا المكان .. وأنه قد غادره إلى الأبد.

•

وهبَّت واقفة مترنحة .. واندفعت تغادر الحجرة باكية في حرقة .. وبقي محمود واقفاً في مكانه كالتمثال .. وقبضة هائلة تعتصر قلبه وتخنق أنفاسه .. ففي لحظة واحدة تأكد من شيئين .. تأكد من حب غادة له .. وبأنها ظلت تحبه حتى النهاية .. وأن لا ذنب لها فيما حدث من أبيها .. ولا تستحق منه ما فعله بها .. حتى لو كانت ابنة الرجل الذي أهانه وسبه واتهمه باللصوصية والإجرام وعايره بما لا ذنب له فيه. وتأكد أيضا أن السماء عادلة لا تظلم إنساناً .. وأن ماضي والده الذي عايره به والد غادة .. قد يكون شيئاً هيناً أمام ما يعانيه نفس الرجل الآن من عذاب وآلام لما جرى لابنه.

ولكن .. ماذا كان بوسعه أن يفعل لمن كان يحبها .. لقد جاءت تطلب شخصاً آخر .. إنساناً لم يعد له وجود

في ذلك المكان كما قالت غادة .. تشهد بذلك السكرتيرة الحسناء والزبائن الأثرياء بالخارج.

ليس له ذنب فيما حدث .. هو أيضا ضحية. ورنَّ صوت غادة الباكي في أذنه قائلا : لو كان معي مال أو حلى لبعتها وذهبت إلى محامٍ آخر .. ولم أكن أظن أنني سأجد أمامي إنساناً آخر .. ولكن يبدو أنني أتيت متأخرة، وأن الإنسان الذي جئت أنشد مساعدته لم يعد له وجود في هذا المكان .. وأنه قد غادره إلى الأبد.

أغمض محمود عينيه في ألم شديد .. وأحس أنه يفيق من كابوس طويل.

« الدفاع »

اكتظت قاعة المحاكمة بالحاضرين .. وقد امتلأ قفص القاعة الحديدي باللصوص والمجرمين. وبدا في وسطهم شاب صغير السن بوجه مصرور وعينين ذابلتين مليئتين بالدموع، وقد بدت بذلة السجن الزرقاء متسعة عليه ومهدلة فوق جسده النحيل .. وأمام القفص كانت هناك عجلة متحركة يجلس فوقها رجل أكله الشلل وعيناه المصوبتان نحو الشاب النحيل مليئتان بالدموع.

وفي الجانب الآخر كانت غادة جالسة مع أمها .. تكفكفان دموعهما في لوعة وأسى .. وتحاولان التماسك قدر الامكان.

وصاح الحاجب : محكمة. فوقف الجميع .. ودخل القاضي ثم بدأ مسيَر الجلسة. ونودي على عدد المتهمين والقضايا.

وجاء رقم القضية (٢٦). ونادى الحاجب : أشرف منصور الدرمللي.

تشبثت أصابع أشرف بالقضبان الحديدية في عنف وارتجفت أوصاله .. وتساءل القاضي : من سيدافع عن المتهم ؟

ارتعشت غادة وانفجرت باكية بإحساس من العجز القاهر .. ولكن .. ومن مدخل القاعة وبابها المفتوح جاء صوت قوي يقول : المحامي « محمود عباس الشربيني » حاضر للدفاع عن المتهم يا سيدي القاضي.

لم تصدق غادة أذنيها .. استدارت بعينيها المبللتين بالدموع رغماً عنها، فرأت محمود في روب المحاماة الأسود .. بقامته الطويلة وعينيه الرماديتين وجبهته العريضة .. تقابلت عيونهما في لحظة خاطفة .. كأنها توكيد لما يحدث .. ولم تعد عينا غادة المذهولتان تريان غير محمود في القاعة الواسعة .. كأنه قد ملأ كل فراغها.

وتقدم محمود نحو منصة القاضي .. وراح والد غادة يراقبه في ذهول وعدم تصديق .. لا يصدق أن ذلك الشاب ابن المجرم .. سوف يدافع عن ابنه هو.

كاد يصرخ في القاضي أن هذا الشاب ليس محامي ابنه .. وإنه ما جاء إلى المحكمة إلا للتشفي والسخرية وتوكيد الإتهام لابنه لا للدفاع عنه .. ولكن المرض والوهن منعاه من النطق .. وأحس أنه صار عجوزاً .. عجوزاً جداً لا يقدر حتى على تحريك لسانه بالرفض.

وتوقف عقل غادة عن التفكير وهي لا تدري سر ما حدث أمامها ..

وبدأ محمود مرافعته قائلا : سيدي القاضي .. إن القضية الماثلة أمامكم اليوم باتت قضية معتادة لكثرة حدوثها .. شاب في عمر الزهور قليل الخبرة .. يدفعه التهور والطيش والاحتياج ورفقاء السوء إلى أن تمتد يده إلى السرقة دون أن يدرك عاقبة الأمور .. وقد تكون الجريمة التي يرتكبها خطاً فاصلاً ما بين ماضٍ كريم ومستقبل مظلم .. ما بين الشرف والجريمة .. وهذا الشاب نفسه اعترف بجريمته ولم يجد لها أي تبرير .. فالجريمة مكتملة الأركان .. ونعرف أن أقل عقوبة لها هي السجن لمدة ستة أشهر باعتبارها السابقة الأولى .. ومع مراعاة كل ظروف التخفيف

عن شاب من أسرة كريمة يرتكب جريمة سرقة لأول مرة في حياته، وهي جريمة لا يمكننا التنصل منها ولا أن نطالب بالبراءة للمتهم الذي فعل ما يدينه فاستحق العقاب .. مهما كانت المبررات لديه. ولكن .. سيدي القاضي .. إن للعدالة وجهاً آخر في هذه الجريمة .. وجهاً لم ينتبه إليه.. أحدٌ ولا وضعه مشترعو القوانين في اعتبارهم عندما سنوا تلك القوانين ونصوصها.

نشجت غادة بالبكاء وهي تخفي وجهها بيديها .. وسالت دموع الأب رغماً عنه .. وأشار محمود إلى الأب فوق مقعده المتحرك قائلاً : ها هو الوجه الآخر في هذه الجريمة، الوجه الآخر للعدالة التي لم تضعه في حسبانها.

وعلا صوت محمود وهو يقول : إن هذا الرجل فوق المقعد المتحرك رجل عظيم .. عاش حياته كلها يكافح الجريمة والأشقياء دون هوادة .. عاش يحمي المجتمع من الشر ويحارب كل خارج عن القانون .. عاش للعدالة والقانون أكثر مما عاش لنفسه ولأسرته .. ولأجل العدالة والقانون كانت إصابته التي أعجزته قليلاً .. وكانت سبباً في خروجه المبكر من الشرطة .. وقد كان ينتظره بها

مستقبل عظيم إلى أعلى المناصب .. هذا الرجل .. هو والد نفس ذلك الشاب .. الذي يقف أمامنا اليوم متهما بالسرقة لأول مرة في حياته !

دوى صوت عميق بعد كلمات محمود .. وتعلقت العيون مذهولة بالأب المشلول الجالس فوق مقعده منكس الرأس مقتولاً بالمرارة وعيناه ترسلان أنهاراً من الدموع .. وحتى القاضي سكنت عينيه دهشة عميقة.

وواصل محمود قائلاً : ربما تتساءلون كيف يستقيم مثل هذا الأمر العجيب ؟ كيف يمكن لرجل شرطة عظيم سجله خالٍ من أي شائبة .. أن تنبت شجرة نفس الرجل من أصلها فرعاً يابساً نخره السوس .. قد يكون الأب انشغل عن ابنه بعمله .. انشغل بحماية المجتمع عن حماية ابنه .. قد تكون الاحتياجات المادية هي السبب .. احتياجات لم يلبها المرتب الضئيل للأب ممثل القانون .. الذي رفض أن يلبي هذه الاحتياجات من أي طريق آخر غير شريف .. قد تكون هناك أسباب عديدة لما حدث .. ولكن المؤكد أن ذلك الأب ليس له ذنب فيما حدث ولكنه يوشك أن يُعاقب على ذنب لم يرتكبه .. تماماً

مثل الابن الذي خرج إلى العالم فوجد أباه ملوثاً بالعار والاتهام ..

هذا الأب رجل عظيم .. ماضيه مشرف وسجله ناصع .. والآن تأتي بقعة سوداء كبيرة تكاد تلطخ هذا السجل المشرف .. وتلك البقعة السوداء كادت أن تقضي على الأب فأقعدته فوق مقعد كسيحاً بشلل نصفي .. فما بالكم لو أن جدران السجن قد انطبقت على هذا الابن ووصمته إلى الأبد بتلك الجريمة التي أوقعه فيها طيشه وتهوره ؟

وعلا صوت محمود في حماس وانفعال صائحاً :

سيدي القاضي .. قبل أن تعاقبوا الابن .. انظروا برحمةٍ إلى الأب .. قبل أن توصموا الابن بالعار .. اقرأوا سجل الأب المشرف .. قبل أن تقتصوا للقانون من الأبن. تذكروا كم من الأُسر حماها الأب بخدمته للقانون وتفانيه لهَ .. ربما لو كان نفس الأب قد أهمل قليلاً في عمله وأعطى وقتاً أكبر لابنه .. ربما ما كان الابن ليرتكب تلك الجريمة بسبب رعاية ورقابة الأب. ولكن هذا الأب اختار أن يخدمنا جميعا .. أن يحمينا ويؤمن ظهورنا .. ونسي أسرته الصغيرة

التي أصابتها طلقة طائشة توشك أن تدمر حياتها ..

وجلجل صوت محمود عالياً وهو يقول : إن نفس الأب رفض الإفراج عن ابنه وعدم تحرير محضر بالواقعة عند القبض عليه، وقد كان يستطيع ذلك .. ولكنه فضّل أن يعطي ابنه درساً غالياً في إحترام القانون ولو كان الثمن وصمة عار تلحق بالأسرة كلها طوال العمر، ودماراً لمستقبل ابنه .. إن هذا الأب العظيم يستحق أن نحني رؤوسنا له احتراما .. ويستحق أن ننظر في أمر ابنه نظرة شفقة وعدل .. بعيداً عن نصوص القانون .. إننا لا نطالب بغير حكم الضمير والعدالة .. عدالة السماء وليست عدالة نصوص وضعية .. انكم لن تحكموا على الابن وحده .. بل ستحكمون على الأب أيضا .. ستحكمون على من لا ذنب له .. وستوصمونه بعارٍ أبدي، على جريمة لم يرتكبها.

واختنق صوت محمود بالدموع .. شعر بأن بقية الكلمات تموت فوق شفتيه .. تذكر أنه لم يجد يوماً من يدافع عنه بنفس الكلمات .. وأحس كأن كل ما قاله كأنما يدافع به عن نفسه.

واختنقت بقية كلماته وغمغم منسحباً : شكرا يا سيدي القاضي .. فلم يعد عندي ما أضيفه.

واستدار محمود .. أراد أن يواجه غادة .. تقابلت نظراتهما .. رأى في عينيها دموع شكر عميقة ستدين بها له إلى الأبد .. وانحرفت عيناه نحو الأب .. كان يرفع إليه عينين مليئتين بالدموع والندم .. وشفتاه ترتعشان بكلمات شكر لا يستطيع النطق بها.

ساد صمت عميق للحظات .. وتركزت نظرات القاضي على أشرف في ملابس السجن وتذكر أطفاله الصغار وجاهد ليكبت تأثره وهو يقول : أشرف .. هل يرضيك ما يحدث لأبيك الآن ؟

انفجر أشرف باكياً صارخاً : سامحوني .. سامحني يا أبي .. أخطأت في حقك وحق نفسي .. وتعلمت درساً لن أنساه طوال حياتي.

وانهار باكياً .. وتعلقت العيون بشفتي القاضي الذي تمهل لحظة وعيناه مصوبتان نحو الأب العاجز في إشفاق .. وساد القاعة سكون هائل كسكون الموتى .. ونطق القاضي في حسم

قائلاً: حكمت المحكمة ببراءة المتهم .. على أن يُوضع تحت الملاحظة ثلاثة أشهر.

ولم تتمالك غادة نفسها من الفرحة .. فغابت عن الدنيا.

وعندما فتحت عينيها .. كان أول ما طالعته وجه محمود وهو جالس أمام فراشها في صمت .. وعيناه الرماديتان تعكسان أحزاناً عميقة وهو يتطلع إليها في حزن وإشفاق.

كانت والدتها تقف بجوارها .. وأشرف يقف حراً طليقاً أمامها تغرقه دموع الندم. والأب فوق مقعده المتحرك في نهاية الحجرة. ولكن غادة لم تر غير محمود وحده .. وهمست له : شكراً لك .. لو دفعت عمري كله لك ما استطعت أن أُفي ديني لك.

همس محمود إليها في شجن : بل أنا المدين لك بالشكر .. فلولا أن لجأت لي لأتولى قضية أخيك، لربما كان ضميري قد مات إلى الأبد، وما عاد صاحبه إلى الحياة أبداً.

اندفع أشرف يقبل يدي أخته باكياً وهو يقول : سامحيني يا أختي.

ربتت عليه غادة بإشفاق قائلة : إن أردت أن نسامحك، فلتعوضنا عما سببته لنا من آلام .. فلتكن شيئاً عظيماً في المستقبل فتنسينا ما حدث وتجعلنا نفخر بك دائما.

قال وهو يكفكف دموعه : سأفعل أكثر مما أستطيع .. ولن أكون غير ضابط شرطة ليفخر بي أبي دائماً.

اقترب الأب بمقعده المتحرك .. ارتعشت شفتاه أمام محمود .. وجاهد ليكبت دموعه .. وقال في كلمات متعثرة : سامحني يا بني فقد أخطأت في حقك .. وما كان لي أن أعاقبك على ذنب لم ترتكبه .. لقد علمني القدر درساً عظيماً لن أنساه كل حياتي .. إنني مدين لك بأشياء كثيرة .. لولاك من كان يدري ما الذي يمكن أن يحدث لي .. ولأسرتي كلها من دمار وتمزيق.

محمود : إنني لم أفعل غير واجبي الذي أملاه عليّ ضميري كمحامٍ يبحث عن العدالة .. العدالة الحقيقية ولو كانت تخالف نصوص القوانين.

بمرارة أكمل : كل ما أتمناه هو ألا تدينوا إنساناً بعد ذلك .. إلا على ما ارتكبته يداه من أفعال.

ونهض فتساءلت غادة في لهفة : أين تذهب ؟

أجاب وهو يهرب بعينيه بعيداً : هناك مكتبي وعملائي .. هناك آخرون بحاجة لمن اقف بجوارهم.

قالت غادة والدموع تتجمع في عينيها : أنا أيضا بحاجة إلى من يقف بجواري .. أنا بحاجة إليك بقية عمري ولا أستطيع الابتعاد عنك بعد ذلك لحظة واحدة.

رمقها محمود في صمت .. وانحرفت عيناه نحو الأب .. كانت تعلو وجهه نظرة مترددة تحيا بين الأمل واليأس ..

وقال الأب لمحمود وهو يغالب دموعه : لو رفضت الارتباط بابنتي فلن يلومك إنسان .. لقد صرنا كلنا الآن غير جديرين بك بعد ما فعلته لنا.

لم يجد محمود ما يقوله .. وأحس بمشاعر هائلة متضاربة تتصارع في أعماقه .. واستقرت عيناه فوق وجه غادة الذي تورد من الخجل .. عاد للوجه بريقه ونضارته، وللعينين تألقهما وفرحتهما .. عادت غادة التي أحبها وسكنت أعماقه. ومد يده المتلهفة نحو أصابعها في إعلان عن اختياره .. وضغط فوق أصابعها وتشبث بها في قوة -

كأنه يخشى أن ينتزعها منه إنسان بعد ذلك .. ورفع أصابعها نحو فمه وقبَّل أطرافها.

همس لها : أنت قدري وحبي.

قال الأب وهو يمسح دموعه : سآتي بالمأذون حالاً.

ودوَّت زغرودة من الأم إعلانا بقدوم الفرحة والسعادة .. بعد طول انتظار .. وقد غاب الماضي إلى الأبد.

الفهرس

الماضي.. يعود الآن

كان محمود محامياً ناجحاً... وكانت غادة تعمل في مكتبه كسكرتيرة ومحامية تحت التمرين.. وانطلقت شرارة الحب بين الاثنين حتى استحال عليهما... أن يحيا كل منهما لحظة بعيداً عن الآخر...

ولكن... كانت العاصفة عاتية اقتلعت ذلك الحب من جذوره، عندما اكتشف والد غادة... ضابط الشرطة... سر ذلك الماضي الذي كانت تخفيه عينا محمود الرماديتان... فكأنما وُلد الماضي من جديد في تلك اللحظة... الآن.

دار الجيل

بيروت